مجلة البيان – العدد 16 ، جمادى الآخرة 1409 هـ / فبراير 1989 م

الافتتاحية

إلى أين يتجه التعليم... ؟

إن مشكلة التعليم من القضايا التي تحتاج إلى مراجعة مستمرة ، وتنبع أهميتها من الحاجة الملحة للعلم بمفهومه الواسع الشامل لبناء المجتمعات الحديثة ، وإن الرواد في كل مجتمع هم رجال التربية والتعليم، فهم القادة الحقيقيون، بعيداً عن مظاهر البروز والادعاء ، وهم الـذيـن يقـع عليهم العبء الأكبر في توجيه الأجيال وتسليحها بالأهداف الـصـحـيـحـة، والوسائل الـفـعـالة ، وأي نجاح للمجتمع ينبغي أن يرجع في النهاية إليهم ، كما أن أي إخفاق فـي مسيرة هـذا المجتمع فمرده إلـى قيادتهم ، وإلى الخطأ في الأسس التي اختيروا بمقتضاها.

نظرة عجلى :

لو ألقينا نظرة سريعة على الأربعين عاماً الماضية من أجل تقويم الحركة العلمية والتعليمية في أوطاننا ؛ فسوف نعثر على جانبين ، لكل منهما أنصاره وحججه ، أما سبب التحديد بهذه المدة فلأن هذه المدة هي التي أعقبت خروج الأجانب الـنـاصبين من بلادنا على وجه التقريب ، وأصبحنا مالكين زمام أنفسنا ، ونـقـرر مـصـائـرنا بعيداً عن الوصايا - وإن كانت هذه النقطة مجال جدل طويل ليس مكانه -.

وأربعون عاماً فترة كافية ولا بأس فـيـهـا في حساب الأرباح والخسائر لأمة من الأمم ، أو لمجتمع من المجتمعات.

الجانب التفاؤلي :

لقد خرج المستعمر الأجنبي وجميع أفراد الأمة يحدوهم الأمل ، وتملؤهم الحماسة لبناء المستقبل ، وكان عليهم أن يتلافوا التقصير الذي رزحت تحته أمتهم قروناً طويلة ، وأن ينتشلوها مما صارت إليه من التخلف والتبعية المفروضة التي تضافرت على فرضها عوامل داخلية وخارجية ، ولم يكن من حلٍ غير العلم ، كماً ونوعاً.

إن العدل يقتضينا أن نفرح ونبتهج عند مقارنتنا لحالنا الآن بحالنا عشية خروج الاستعمار فإن نسبة المتعلمين إلى مجموع السكان قد ارتفعت ارتفاعاً مطرداً ، ولا تزال في ارتفاع ، وقد تضاعفت إلى جانب ذلك عدد المدارس عشرات المرات ، وإن مما يحسب لهذه الفترة هو إلزامية التعليم الابتدائي في أغلب البلاد العربية ، وبعد أن كان التعليم الجامعي وقفاً على الفئات الميسورة والغنية صار كذلك حقا للفئات الفقيرة ، واقتحم المتعلمون من هذه

الفئات ما كان مقصوراً على غيرهم ، وتبوؤوا أمكنة كانت بعيدة المنال ، فأصبحت ممكنة بفضل التعليم.

ويمكن تلخيص الجوانب الحسنة في مسيرة التعليم ، والتي ينظر إليها المتفائلون بما يلي:

أصبح التعليم ضرورة اجتماعية بعد أن كان ترفاً وميزة لفئة معينة.

تحول المجتمع كله إلى مهتم بالتعليم ، ومشارك في إنجازاته ودفع نهضته.

بفضل التعليم ارتفع المستوى الاجتماعي لفئات وطبقات في المجتمع كانت تعيش معيشة هامشية.

أزال التعليم كثيراً من الفوارق والأمراض الاجتماعية التي كانت ترجع بالسوء على بنية المجتمع.

جعل جميع أفراد الأمة يشعرون بذواتهم ، ويقدرون إمكاناتهم وحقيقتهم في الوجود ، وعزز الثقة الجماعية بالنفس.

هذه أمثلة للجوانب الإيجابية للنهضة التعليمية يمكن أن يضاف إليها كثير من النقاط الأخرى.

الجانب التشاؤمي :

على الرغم من الاعتراف بكل مزايا الفترة الماضية فيما يتعلق بالإنجازات التعليمية على المستوى الفردي والعام ؛ إلا أنه يبقى الكثير الذي لابد من أن يطرح ، ومن ذلك.

لقد كان الاعتقاد أن تنمحي الأمية من المجتمعات العربية ولكن هذا لم يحدث.

والأمر الطبيعي أن تكون البدايات بسيطة ومتواضعة ، ثم تقوى وتشتد ، ولكن المشاهد أن نوعية التعليم قبل أربعين سنة كانت أفضل مما هي عليه الآن - وهذه قضية لا يختلف عليها أحد - صحيح أن تقدماً حصل من الناحية العددية ، ولكنه تقدم سطحي ، وتمدد أفقي على حساب العمق والجودة.

ومن السلبيات التي انحطت بالتعليم النظرة الخاطئة إليه ، واعتباره وسيلة لرفع المستوى المادي، دون اعتباره غاية قائمة بنفسها.

إذا أحب أحد أن يناقش التعليم على مستوى العالم العربي فإنه يلحظ شيئاً من التفاوت الذي أدى إلى خلل وعيب في البناء التعليمي ، فبينما نجد بلاداً كانت فيها.النهضة التعليمية أسبق منها في غيرها ؛ نجد أن هذه البلاد السابقة قد هبط مستوى التعليم فيها لأنها أصبحت معنية بسد النقص والحاجة عند غيرها من جهة ، وكذلك فإن الحالة المادية أصبحت تتحكم بالمستوى التعليمي ، فنظراً للضائقة المالية التي تعيشها هذه الدول فقد أصبح تخريج الخريجين عندها استثماراً (وهذا من حيث المبدأ لا غبار عليه ولا مانع منه بشرط مراعاة جودة الإنتاج) وترتـب على ذلك أن انـصـرف المعـنـيـون إلى تكثير عدد

المتخرجين لتغطية الطلب في السوق ، وكان ذلك على حساب النوعية المؤهلة تأهيلاً كافياً.

اهتزاز قيمة المعلم الاجتماعية ، وتقويمه تقويماً مادياً فقط ، فبينما ارتفع المستوى المادي بتسارع شديد لكثير من أصحاب المهن والحرف اليدوية التي لا تتطلب إعداداً علمياً أو تثقيفياً ، وأصبح هؤلاء ذوي امتيازات مادية لا تنكر ولا تحجب ؛ ظل المستوى المادي للمعلم متخلفاً ، والتحسينات التي تزاد عليه تحبو حبواً بالمقارنة مع ارتفاع مستويات المعيشة والغلاء التي تضرب المجتمعات عامة ، ومجتمعاتنا العربية بصورة خاصة.

وأصبحت مهنة التعليم من المهن المحتقرة في المجتمع ، وهذه حقيقة لا يمكن أن تنكر ، على الرغم من كل ما يقال من كلام إنشائي في مناسبات تكريم المعلم ، بل إن هذا المدح غـيـر الـعملي، والإشادة الباردة بالمعلم ودوره في المجتمع ليست إلا من قبيل معالجة خلل موجود في النظرة العامة السائدة تجاه مهنة التعليم، ولو سألت معلم أو مدرس سؤالا بسيطاً : هل يحب لولده أن يمتهن مهنة التعليم في مستقبل حياته؟ لكان الجواب بالقطع: لا.

إن لهذا دلالة يجب أن يقف المرء عندها ، وأن يحللها تحليلاً يقفه على أسبابها ودوافعها ونتائجها. وعندما يشعر المعلم أنه أصبح مهاناً لا من قبل الأغنياء والميسورين الذي جُلِبَ كي يعلم أولادهم فحسب ! بل من قبل فئات أخرى متخلفة علماً وفكراً عنه ، ولها نفس منبته ، ومنحدرة من مستوى اجتماعي قريب من مستواه؛ عندما يعيش المعلم هذا الشعور، فهل يلام على قلة إخلاصه وموت طموحه نحو تقديم الأفضل ؟!

هذه لمحات حول قضية هبوط المستوى التعليمي في مدارسنا ،وتظل هذه القضية طويلة ومتشعبة وبحاجة إلى بحث وتحليل ، وحسبنا أننا أشرنا إشارة إلى ذلك ، وأننا فتحنا الباب للقراء الكرام لتناول هذه المسألة المهمة بالتفصيل والتعليق.

وإننا نرحب بالمساهمة في ذلك على صفحات مجلة "البيان" ،على أن تكون المعالجة عامة لا تخص بلداً دون بلد ، ولا تتناول من الظواهر إلا ماله تعلق بالضعف العام الذي انحدر إليه المستوى التعليمي ، وأسباب ذلك ، ونسبة ارتباط كل منها بالمناهج ، أو الخطط التعليمية،أو خطط إعداد المعلمين.

وعلى الله قصد السبيل..

مجددون معاصرون

رد على اعتراض

اتصل بنا عدد من الأخوة الأفاضل وقـالـوا مـاذا تقـولـون عن بعض هؤلاء العلماء المعاصرين الذين نعتموهم بالتجديد؟ ... ألا ترون أنهم من مدارس مختلفة لا يجمعها جامع ، ولا يربط بينها رابط؟... هل تريدون إرضاء الناس كلهم مع أن إرضـائهم غاية لا تدرك ؟! غفر الله لهؤلاء الأخوة الكرام !
المشكلة أنهم من طلاب العلم ،وطالب العلم يحترم آراء الآخرين ، ولا يتسرع في إصدار الأحكام أو التهم.
وكما وعدنا القراء ، سوف نمضي في الحديث عن كوكبة من الـعـلـماء المعاصرين الذين نفع الله بـهـم ، وسنذكر الجوانب التجديدية لكل علم من الأعلام ، وفى الحـلـقـة الأخـيـرة نجيب عـلـى أسـئلة الذين اتصلوا بنا والذين لم يتصلوا بنا ، ونوضح انسجام ما نكتبه مع المنهج الذي التزمـنـا بـه في بداية هذا البحث. ومن حقنا على إخواننا أن يقرأوا ما نكتبه بإمعان وتجرد !! فإن وافـقـونـا فخير وبركة، وإن خالفونا فالمسألة من المسائل التي يجوز فيها الخلاف ، نسأل الله أن يرزقنا وإخواننا الصبر والتجرد، إنه سميع مجيب.

حسن البنا

لن نتحدث حديثاً تقليدياً عن ولادة حـسـن الـبـنـا -رحمه الله- وسيرة حياته ، فالرجل ليس مجهولاً ، وهناك عشرات الكتب التي كتبت عـنـه، نـاهـيـكم عن كتبه التي لا تكاد تخلو منها مكتبة، وسوف نقسم الموضوع إلى دروس ،محاولين الاختصار قدر الاستطاعة :

الدرس الأول :

ولــد حسن البنا -رحمه الله- عام 1906،وأسس جماعة الإخوان المسلـمـين عام 1928، وقتله أعداء الله عام 1949،وهكذا تكون سني عمره عندما أسس حركة الإخوان 22 عاماً وعـندمـا تـوفــاه الله 43 عاماً. وكان خلال هذه الفترة حديث الناس في مصر كلـهـا، وفـى البلدان العربية ، بل وفي العالم كله. ولم يكن -رحمه الله- متفرغاً للعمل الإسلامي ، فلقد كـان مـدرسـاً معظم النهار ، وكان رب أسرة ينفق عليها ، ويرعى شؤونها ، وكان مؤسس جماعة إسلامية كبيرة تنتشر شُعبها ومراكزها في جميع أرجاء مصر.
إذا نظرنا إلـى سـيـرة البنا وهو طالب صغير في أوائل المرحلة الإعدادية نجد أنفسنا أمام طالب يختلف عـن غـيـره مـن طـلـبة عصره ،بل ومن طلبة هذا العصر ... ها هو يتحدث عن نفسه فيقول بأنه يقسم وقته "بين الـدرس نـهــاراً ،وتعلم صناعة الساعات التي أغرم بها بعد الانصراف من المدرسة إلي صلاة العشاء، ويستذكر الدروس بعد ذلك إلى النوم ،ويحفظ حصته من القرآن الكريم بعد صلاة الصبح حتى يـذهـب إلـى الـمدرسة". [مذكرات الدعوة والداعية /12].

ننتقل من الحديث عن البنا وهو طالب في الإعدادية إلى الحديث عنه وهو قائد جماعة: يخطـط لهـا يربــى جمهور شبابها... يحــاضر هنا وهناك.. يؤسس الـصـحـف والمـجـلات ويديرها.. وهو إلـى جانب هذا وذاك مـدرس في مدارس الدولة ، وفى العطلة الصيفية هل كان يستجم مع عائلته فـي قـرية هـادئـة ليس فيها صخب ولا ضوضاء ؟!. هل كان يغادر مصر للسياحة والمتعة المشروعة؟!.

إن حياة المجدد لا تعرف إيثار العافية والـراحــة ، لاسيما وهو يشعر بأن لأهل الأرياف والمناطق النائية حقاً عليه وعلى إخوانه ، فرحلة مـن رحــلاته بدأت في 11 ربيع الثاني وانتهت في 9 جمادى الأولى من عام 1352 زار خلالها : أبو صوير شرقية، الإسماعيلية ، السويس ، بور سعيد، الدقهلية بفروعها ، طنطا، شبراخيت ، المحمودية [بحيرة] ، دمنهور [بحيرة]، شلنج [قليوبية]. [المذكرات/1154].

ويقول أحد مرافقيه:
"كان يقطع الوجه القبلي كله بلداً بلداً ، وقرية قرية فـي عـشـرين يوماً ،في بعض الأحيان يصبح في بنى سويف ، ويتغدى في ببا ، ويمسي في الواسطي ، ويبيت في الفيوم... وهكذا كان ينام ساعة أو بعض ساعة ، وفي الوقت الذي يضع فيه رأسه على الوسادة ينام ونحن نتحدث من حوله". [الإخوان المسلمون والمجتمع المصري/14].

أليس في حياة هذا الرجل درس للكسالى الذين يقتلهم الفراغ ومـع ذلك يتحدثون عن ضيق الوقت ؟!

أو ليس في حياة هذا الداعية المجدد عبرة للذين يتباكون على واقـع الـمسلمين اليوم ، ولا يقدمون للعمل الإسلامي إلا فضلات أوقاتهم ، فالوظائف تستهلك معظم أوقاتهم ، والزوجة تستهلك بقية الوقت وهى لا تفتأ تردد "خيركم خيركم لأهله" والمسكين يخـلـط بـيـن فهـم خاطـئ للـحـديـث وبـيـن طاعة امرأة لا يرضيها في كثير من الحالات إلا أن تستحوذ عليه وتحول بينه وبين الناس الطيبين ، وبينه وبين الدعوة والجهاد في سبيل الله.

أرأيتم كيف يبارك الله بأوقات العلماء المخلصين ، فأولاد حسن البنا فيما كتبوه قالوا: لقد بذل جهداً في تربيتنا ، وكان يجلس معنا ويداعبنا ، وشقيق البنا قال فيما كتبه: لقد كان أستاذي وأخي. ولم ينس فضله عليه في تربيته وإعداده ، ومما يجدر ذكره أن حسن البنا كان النجل الأكبر لأبيه الشيخ عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي.

الدرس الثاني :

اتصل حسن البنا -رحمه الله- بعلماء عصره وسمع منهم وناقشهم ، وكان يعترف بفضلهم فيما كتبه من مذكرات.

وعندما أعلن الطاغية أتاتــورك عن هدم الخلافة الإسلامية عام 1924، كان عمر البنا 18 سنة وكان في أوج عطائه ، يتـحـدثـون عن هذه المصيبة التي رزئ بها الإسلام والمسلمون ، ويتنادون لعقد مؤتمرات وندوات - كعادتهم - يطالبون فيها بعودة الخلافة... وكان رشيد رضا في مجلته - المنار - ينادي بالجـمــاعة والعمل الجماعي ، وأنه لا سبيل إلى مواجهة أعداء الإسلام إلا بوجود جماعة... ومع ذلك بقيت أفكار رشيد رضا نظرية ، ولم ينجح أو بالأحرى لم يسع إلى تأسيس هذه الجماعة.

ومن جهة أخرى فقد رافق هدم الخلافة انتشار الفساد والنشاط الصليبي الهدام في مصر... أشار البنا -رحمه الله- في مواضع مختلفة في مذكراته إلى هذه الآفات) انظـر إلى ما كتبه تحت عنوان: موجة الإلحاد والإباحـيـة فـي مـصـر ، ص 49 ، وما كـتبه عـن التبشير ، ص147 من مذكراته).

فـكـان الشيخ حسن البنا -رحمه الله- كالليث الجريح لا يهدأ ولا يستقر...يأمر بالمعروف وينـهـى عـن الـمـنـكـر ، ويتصل بالعلماء ويكتب إلى المسؤولين... أنظر إلى لقائه مع الشيخ يوسف الدجوي [علم من أعلام الصوفية وخصم من كبار خصوم الدعوة السلفية] ، تحدث -رحمه الله- عن هذا اللقاء بأدب ولكنه أوضح مقصده ، فصور لنا أن الشيخ كان يائساً :

"وانتهى ذلك كله إلـى أنـه لا فـائـدة مـن كل الجهـود ... وأوصـانـي ?? أن أعمل بقدر الاستطاعة ، وأدع النتائج لله ،لا يكلف الله نفسا إلا وسعها".

ويـصــور لـنــا مشهداً آخر في هذه المقابلة يوم أن قدم الشيخ محمد سعد حلويات رمضان ، وتعمد البنا أن يـجـلـس إلى جانب الشيخ الدجوي ،وأخذ الدجوي حلوى وقدمها إلى البنا ليأكلها فرفض الأخير تـنـاولهـا وقال. " لو كانت رغبتي بهذه النقل وأمثاله لاستطعت أن أشتري بقرش وأظل فـي مـنـزلـي ولا أتـكــلف مشقة زيارتكم" وانطلق يتحدث عن الفساد والإلحاد وواجب العلماء.

وإذا كان الشيخ الكبير الدجوي يائساً فالمجدد لا ييأس ولا يتراجع.. أنظر إليه يقول : "لم يعجبني طبعا هذا القول".... وأمام إصـرار الـبـنـا أمر الدجوي برفع الحلوى دون أن يتناولوا منها شيئا، واتفقوا على عقد اجتماع يضم نخبة من العلماء ، وتم ذلك ، وأسفرت هذه اللقاءات عن ظهور مجلة الفتح التي كان يرأس تحـريرهـا محـب الـديـن الخطـيـب . [المذكرات/151].

كـانـت أجــواء ومـجـالس أمثال هذا الشيخ لا تسمح لشاب صغير أن يخاطب الشيخ بهذا الأسلوب. قال البنا : "وكـنـت أتـكـلـم فـي حمـاسة وتأثر وشدة ، من قلب محترق مكلوم ،فانبرى بعض العلماء الجالسين يرد علي فـي قـســوة كــذلك ، ويتهمني بأنني أسأت إلى الشيخ وخاطبته بما لا يليق ، وأسأت إلى العلماء والأزهر ، وأسأت بذلك إلى الإسلام القوي العزيز ، والإسلام لا يضعف أبداً والله تكفل بنصره" [المذكرات/52].

وكــان- رحمه الله -يعلم أن هذه الجهود ستبقى ضعيفة جزئية لأسباب لا تغيب عن ذهن ألـمعي مثله ، وليس هذا الذي يتطلع إليه المجددون ، إذن لابــد مــن عـمــل جمـاعــي شامل...وعرف البنا العمل الجماعي مذ كان طالبا في الإعدادية ، فلقد كان رئيس إدارة " جمعية الأخلاق الأدبية " وكان لهذه الجمعية نظام داخلي... ثم أسس بعد حين " جمعية مـنــع الـمـحـرمات " وكــان مــع زملائه يرسلون رسائل للعصاة والمقصرين يأمرونهم فيها بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً.
وانتسب إلى الطريقة الحصافية ، وكان عمره أربعة عشر عاما ، وبايع شيخ الطريقة وأسس مع أحمد السكري " جمعية الحـصـافـيـة الخـيـريــة " ، وكـانـت مهمتها نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ومقاومة المنكرات ، ثم تخلى عن الطريقة والجـمـعـيـة عندما أدرك أن حاجة المسلمين أكبر من ذلك بكثير.
وفى القاهرة - وكان عمره ستة عشر عاما - انتسب إلى "جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية" ، وإلـى "جمـعية الشبان المسلمين". قال -رحمه الله- : "وأذكر أنني كتبت تـواً إلـى عـبـد الحميد بك سعيد معلناً اشتراكي بالجمعية ، وواظبت على دفع الاشتراك...".
وكان الدافع إلـى انـتـسـابه إلى هذه الجمعيات كلها رغبته في الإصلاح ، وشعوره بأهمية العمل في جماعة ، ولعل هــذه الجماعات كانت تتناسب مع وعيه في تلك المرحلة غير أنه يكتشف بعد قليل أن دورها جـزئـي محـدود ، وإذن لابـد مـن جمـاعــة تتسم بالشمولية، ولـهـذا أسـس جمـاعــة الإخوان المسلمين عام1928 ،وحدد فقرات هذا المنهاج في النقاط التالية :
1-نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خلقه وعاطفته ، وفي عمله وفي تصرفه. فهذا هو تكويننا الفردي.
2- ونريد البيت المسلم... ونحن لهذا نعنى بالمرأة ، ونعنى بالطفولة.
3- ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله.
4- ونريد بعد ذلك الحـكــومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد... ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بـهــذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.
5- ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي.
6-ونريد بعد ذلك أن تعود رايــة الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر.

7-ونريد بعد ذلك ومعه أن نـعلــن دعوتنا على العالم ...وأن نعمم بها آفاق الأرض ، وأن نخضع لها كل جبار.
ثم يقول: بأن ناساً سيقولون هذا خيال وأوهام. وذلك هــو الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة ، فمكن لأعدائها فيها... ثم قال : وإنما نعلن فـي وضـوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لا حظ له في الإسلام (1) فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها.
وليس في الطريقة الحصافية في جمعية الشباب المسلمـيـن أو في جمعية مكارم الأخلاق مثل هذه الأهداف التي رسمها البنا -رحمه الله- لجماعته.

الدرس الثالث :

عندما قطع البنا مراحل مهمة في بناء جماعته ، وعـنـدمـــا توسعت هذه الجماعــة وعظم شأنها في مصر، وكثر أتباعها ، كان لابد أن يضع لها منهجـاً علمياً تتربى علـيه ، ولهذا فقد طلب من الشيخ "سيد سابق" - وكان من كبار العاملين فـي هــذه الجماعـة - أن يقوم بتأليف كتاب في الفقه ، واتفق معه على سمات هذا الكتاب ، فـقـــام سـيـد سابق بتأليف كتاب " فقه السنة" ، وكتب الشيخ حسن البنا تقدمته ، وأصبح مقرراً في منهج الجماعة.
وكان الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - كما عودنا - منصفا عندما عدَّ تأليف وتـدريـس هذا الكتاب مكرمة من مكارم البنا رحمه الله ، لاسيما وقد جاء هذا الحدث في وقت كانت تـهـيـمــن الصوفـيـة والمذهبية على أجواء العلماء والمعاهد والجماعات الإسلامية في مصر ، ووجد هذا الكـتـاب والحمد لله رواجا واسعا وطبع طبعات كثيرة ، وفى هذا دليل على أن المستقبل للسنة وليس للتقليد ، وللتعصب المذهبي المذموم.
وأراد رحمه الله تربية أتباعه على التمسك بالكتاب والسنة ، وحذرهم من البدع والجمود والخرافات، ومن تقديس أقوال الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة ، قال رحمه الله :
"وكل أحد يؤخــذ مـن كــلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكنا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا". [رسالة التعاليم].
ولاشك أن كلاً يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، والبنا رحمه الله بلباقته وحسن تعبيره ، يصـــور لنا بشكل آخر تجربته مع الطرق وشيوخ الصوفية ، ومن غير شك كان يحزن من شدة تقـديــس الأتباع والمريدين لشيوخهم ، انظر إليه وهو يحدثنا عن أتباع الشيخ الدجوي كيف ردوا عليه بقسوة لأنه خاطب الشيخ بما لا يليق... وبإساءته للشيخ أساء للعلماء

والأزهـر والإسلام... والبنا أراد من الشيخ أن ينهض لمحاربة الفساد والإلحاد في مصر فكيف أساء للإسلام ؟!.
وهؤلاء تربوا على أن شيخهم لا يـقــول إلا الحــق ، وهـو ظـل الله فـي الأرض ، وأوامره ونواهيه دين لا يجوز مخالفتها أو الخروج عليها !! والبنا لا يريد هـذه التربية المنحرفة.
لا يريد أن يكون بين أتباعه كما كان الدجوي بين أتباعه ، ولهذا علمـهـم وأكـد في رسالة التـعـالـيـم بأنه ليس معصوماً ، ويجب أن لا يقبلوا من كلامه إلا ما كان موافقاً لـلـكـتــاب والسنة ، ومن خالف ذلك فقد أساء للبنا ودعوته.

الدرس الرابع :

واجهته كما واجهت غيره من المجددين صعوبات كثيرة ، وتحديات جمة ، فما تراجع، ولا ضعف ، ولا قبل الدنية في دينه ودعوته.
- حاربه المستعمرون الإنجليز بوسائلهم المعروفة.
- وحاربه فاروق وزبانيته ، وهم الذين دبروا محاولة اغتياله.
- وحـاربــه حزب الوفد بإمكاناتهم الضخمة ، وشنوا عليه حملة إعلامية كاذبة ظالمة ، وكانت صحـفـهم تخرج كل يوم وفيها تشهير هابط بحسن البنا وأهدافه ونواياه ، والناس يتأثرون بالإعلام ، وكان قادة حزب الوفد مزيجا من العلمانيين والأقباط.
- وحاربته بقية الأحزاب الأخرى بوسائل لا تختلف عن الوسائل التي استخدمها حزب الوفد.
- وحاربه شيوخ السلطة لأن أسيادهم - فاروق والوفد - حاربوا البنا ، ولأن الناس التفوا حول البنا ، وانفضوا من حولهم وتناقص عدد الذين يقبلون أيديهم.
- وحاربه ضـعـــاف النـفــوس من رفاق دربه الذين لم يجدوا عنده ما كانوا ينتظرون من أطماع ، فتخلوا عنه ، وانضـمــوا إلـى حــزب الـوفــد ، واستـخـدمهم الحزب في حملته الإعلامية الفاجرة ضد حسن البنا.
وكان الرجل يتوقع مثل هذه المعوقات ، وتنبأ بها منذ بداية الطريق ، وكان قد وضع لها الحلول الناجعة... ومن هنا نخرج بفائدتين :

الأولى :

هــذه الأحزاب الجاهلية كالوفد والبعث وغيرهما ليس فيها خير ولا أمـانـة ، وقـادتـهـم يعلـمـون أن أهـواءهــم تتعارض مع تعاليم الإسلام وأهدافه ، فقد يصدقون في تحالفهم مع الشيوعية والصليبية والاستعمار الغربي والباطنية أما مع الإسلام فيستحيل ، والله سبحانه وتعالى حذرنا منهم بقوله :((ولا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ومَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)) [هود: 113]

وقال:((لا تَجِدُ قَـوْمـاً يُـؤْمِـنُــونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ ولَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...)) [المجادلة: 22]

***

الثانية :

يظن بعض السذج أو المهزومين أنـه من الممكن أن تقوم دعوة لها أهداف نبيلة ، وأن تتسع هذه الدعوة وتحقق أهدافها دون أن تـواجـهـهـا تحـديــات وافـتــراءات وأباطيل ، أو قد يتحدثون عن الصعوبات ، لكن حديثهم يبقى نظرياً ، فإذا أصبـحـت التحديات حقيقة ، ضعفوا وارتبكوا واضطربوا ، وفي حالة الاضطراب والضعف يـنـحـــون باللائمة على أفراد منهم لأنهم سبب هذا البلاء... ليت هؤلاء يدرسون في كتاب الله وسـنـة رسوله -صلى الله عليه وسلم- سنن الله في ابتلاء الدعاة والجماعات الإسلامية... ليتهم يطيلون التأمل في قراءة وتدبر معاني قوله تعالى :

((أَمْ حَـسِـبْـتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّـتْـهُـمُ الـبَـأْسَــاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْـزِلُــوا حَـتَّــى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)) [البقرة:214].

وقوله :

((الـــم * أَحَسِبَ الـنـَّاسُ أَن يُـتْـرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ * ولَقَدْ فَتَنَّا الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَذِينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ)) [العنكبوت:1-3].

لقد اشترى الإنكليز وفاروق والأحــزاب ذمم بعض كبار الأدباء والمفكرين ، وكتب أحدهم ذات مرة يقول بأن حسن البنا من أصــول يهودية ، ودليله على ذلك أنه يعمل في تصليح الساعات وهذه الصناعة يحتكرها اليهـود ... ولسنا في صدد الرد على أقوال هذا المفتري ، ولكن نشير إلى أن مثل هذا القول اتهم به الرافضة ومن يدور في فلكهم الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ومن قبل اتـهــم المشركون والمنافقون واليهود رسول الله وأهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصـحـبــه وسـلـم بمـخـتـلف الاتهامات الشنيعة الباطلة.

وقصارى القول مضى خصوم البنا... مضى فاروق وإذا ذُكِرْ تذكر انحرافاته وفساده ، وسوء حاشيته... ومضى الإنكليز وأعوان الإنكليز غير مأسوف عليـهـم ... ومضى قادة الأحزاب الجاهلية بأوزارهم ، وبقى ذكر حسن البنا الطيب العطر ليس في مصر وحدها بل في العالم كله ((فَأَمَّا الزَّبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فيمْكُثُ)) [الرعد/17].

الهوامش:

1- من يقرأ كتب البنا ورسائله يعلم أنه لم يرد بهذه العبارة تكفير أحد من الناس ، ولهذا رأينا التنبيه.

لا تقولوا الباطل

أخذ الله العهد على العلماء ومن يتصدى للدعوة أن لا يكتموا العلم ، ويبينوه للناس ، ولا يخشوا أحدا إلا الله ، وقد كان شـرار أهـل الـكـتـاب علـمـاؤهم ورهبانهم بما يكتمون من البينات وبما يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وفضل الله هذه الأمة فجعل علماءها خيارها ، فأعطوا الكلمة حقها ورعوها حق رعايتها ، والأمثلة في تاريخنا كثيرة ، جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن أبا جعفر الأنباري قال له عندما امتحن ليقول بأقوال المعتزلة الباطلة : "يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق ، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الـنـاس كـثـيـر ، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ، ولابد من الموت ، فاتق الله ولا تجب فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله" [سير أعلام النبلاء 11/2].
وجاء أيضاً : قال المروذي : يا أستاذ إن الله قال ((ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)) ، قال: يا مروزي اخـرج فـانظر ، فخرجت إلى رحبة دار الخلافة ، فرأيت خلقاً لا يـحـصـيـهـم إلا اللـه ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر ، فقال لهم المروذي: ماذا تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد ونكتبه ، فدخل فأخبره ، فقال: يا مروذي: أضلُّ هؤلاء كلهم .
أراد هذا الإمـام الـمـبجل أن يضحي بنفسه ولا يفسد عقائد الناس لأنه متبع ومقتدى به، وبـعـض من يقـتـدي بـهـم الـيـوم مـن الدعاة ، وفى غمرة فقدان الوعي الشامل والاجتهاد الدعوي الصائب يقعون في ما استطاع الإمـام أحـمـد أن يـبـتـعد عنه ، سواء بتزكية من لا يستحق التزكية، أو بتبرير لأوضاع غير سليمة،فيتبعهم الناس ويؤملون الخير ويستبشرون، ولكن آمالهم تخيب بعدئذ.
وإذا كنا نحن المسلمين مأمورين بقول الحق في تقويم الناس ، وأن نعدل حتى في لحظات الغضب والشنآن ؛ فهذا في معرض التقويم الشامل فنقول عن الشجاع شجاع ولو كان كافرا أو فاسقا ، ونقول عن فلان أنه خدم بلاده وأفادها من ناحية دنيوية في معرض الاعتراف بالواقع ، وهذا كله عندما تكون الصورة واضحة في أذهان الناس ولا نلبس عليهم أمور دينهم.
ونحن نعلم أنه لا أحد يكره أمثال هؤلاء الدعاة على أقوال تحسب على الإسلام والمسلمين وهى ليست بذاك ، وقد يظنون أن هذا فيه مصلحة للدين ولكن الحقيقة أن مفسدتها أكثر من مصلحتها. ولذلك نقول لهؤلاء مخلصين

مشفقين : إذا كنتم لا تستطيعون قول الحق فلا تقولوا الباطل ، وذاك أضعف الإيمان.

هجر المبتدع@

الشيخ بكر أبو زيد

تـكـلـم المـؤلـف في الحلقة السابقة عن مقاصد الإسـلام في الهجر ، وعن أهمية ذلك الهجر لـردع المـبـتـدع وإشـعـاره بانحرافه وابتعاده عن الطريق السوي ، ثم تكلم عن أنواع الهجر فقسمها إلى ثلاثة أنواع، تكلم في الحلقة السابقة عن النوع الأول وهو هجر الترك، وفي هذه الحلقة يكمل أنواع الهجر.

****

الثاني : الهجر لاستصلاح أمر دنيوي ، أي (الهجر لحق العبد) : وفيه جاءت أحاديث الـهـجـر بـمـا دون ثـلاث لـيـال، رواها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، بأسانيد في الصحيحين وغيرها (1) ، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال ، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث.

ومن الهجر هنا : هجر الوالد لولده ، والزوج لزوجته ، وقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا.

عن أنـس رضـى الله عـنه قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال".

وبعد أن بين الخطابي رحمه الله تعالى: أن ما وراء الثلاث على المنع قال: "فأما هجران الوالد ولده والزوج لزوجه، ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه شهراً". ا.هـ (2)

وهذا النوع من الهجر من مباحث الرقاق والآداب.

النوع الثالث : الهجر قضاء ، وهو من العقوبات التعزيزية للمعتدين ، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزيز(3).

المبحث الثالث

شروط الهجر :

الهجر الشرعي للفجار من المبتدعين ، والفساق (عبادة) ، والعبادة لابد من توفر ركنيها:

الإخلاص ، وهو ميزان الأعمال في باطنها.

والمتابعة ، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها.

فلابد من أن يكون الهجر : خالصاً صواباً ، فالهجر لهوى النفس: ينقض الإخلاص ، والهجر على خلاف الأمر : ينقض المتابعة. والله أعلم.

المبحث الرابع

صفات الهجر : (4)

الأصل في الهجر هو الإعراض بالكلية عن المبتدع والبراءة منه.
ومن مفرداته :
عدم مجالسته.
الابتعاد عن مجاورته.
ترك توقيره.
ترك مكالمته.
ترك السلام عليه.
ترك التسمية له.
عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام.
عدم سماع كلامه وقراءتهم.
عدم مشاورتهم.
وهكذا من الصفات التي يتأدى بها الزجر بالهجر ، وتحصل مقاصد الشرع.

المبحث الخامس

منزلة الهجر من الاعتقاد :

يؤصل علماء الإسلام (هجر المبتدع ديانة) تحت القاعدة العقدية الكبرى (قاعدة الولاء والبراء) (5).
ومفهوم هذه القاعدة الشريفة لدى أهل السنة والجماعة هو : الحب والبغض في الله ، فهم يوالون أولياء الرحمن ، ويعادون أولياء الشيطان ، وكلٍ بحسب ما فيه من الخير والشر.
وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره المرء أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" متفق عليه (6).
وعن أبي إمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: »من أحب لله ، وأبغض لله، وأعطى لله ، فقد استكمل الإيمان« رواه أبو داود والضياء(7).
يحيى بن معاذ : (حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء)(8).
وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام ، لكثرة النصوص عليها من الكتاب والسنة والأثر(9).

ومن أولى مقتضياتها - التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها - البراءة من أهل البدع والأهواء ، ومعاداتهم ، وزجرهم بالهجر ونحوه ، على التأبيد حتى يفيئوا ، وهذا موفور في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة (10).

واكتفي بما أصله الإمام أبو إسماعيل الصابوني م سنة 449هـ رحمه الله تعالى إذ قال :

(ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه ، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم ، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني ، ولا يناظرونهم ، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان قَرّت بالآذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جَرَّت ، وفيه أنزل الله عز وجل قوله ((وإذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ)).

ثم ذكر علامات أهل البدع ، وعلامات أهل السنة ، ثم قال: (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم ، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم...) ا هـ (11).

والعقوبة بالهجر للمبتدع إحدى العقوبات الشرعية التي ينزلها أهل السنة بالمبتدعة ، حسب البدع والأهواء التي يتلبسون ، بها ، ومنها ما تقدمت الإشارة إليه. والله أعلم.

المبحث السادس

الأدلة من الكتاب والسنة على هجر المبتدع ديانة :

هذا التأصيل العقدي : الزجر بالهجر للمبتدع ديانة ، مستمد من دلائل : الكتاب ، والسنة ، والإجماع وإلى بيان بعض منها :

أولا - الكتاب العزيز :

ففيه آيات كثيرة في التأكيد على)الموالاة في الله ، والمعاداة فيه ، في سور : البقرة ، وآل عمران ، والأنعام ، والنساء ، و ا لمجادلة وغيرها (12).

ونقتصر هنا على ذكر أربع آيات من سور : الأنعام ، والنساء ، وهود ، والمجادلة ، والتي نص العلماء في تفسيرها على عقوبة المبتدع بالهجر ودلالتها عليه ، وذلك باعتبار عموم اللفظ في كل آية ، وهذا هو المعتبر دون خصوص السبب ، ففي عموم كل آية منها دليل على الهجر والإعراض والاجتناب ، والمجالسة ، لكل مبتدع محدث في الدين حتى يفيء ، وعلى هذا تدل كلمة من تراه من المفسرين وغيرهم.

وهذه من أجل الفوائد في تفسير النصوص من آية أو حديث ، إذ يشمل تفسيرها الأمرين:

الأول : ما هي نص فيه.

الثاني : ما يؤخذ منه حكم له وإن لم يكن نصا فيه باعتبار العموم والاستنباط من كتاب الله تعالى وأسرار تنزيله ، وكما في حديث الصحيفة المشهور. " أو فهماً يؤتيه الله رجلا في كتابه".
وهذه قاعدة شريفة فلا يفوتنك الوقوف عليها ، وبخاصة لدى الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى ، وعنه بل بأبسط في كتاب (حد الإسلام وحقيقة الإيمان) (13).
وإلى بيانها.
1-- ومنها قول الله تعالى في سورة الأنعام:68 (14) :
((وإِذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ))
وفي هذه الآية دلالة على تحريم مجالسة أهل البدع والأهواء وأهل الكبائر والمعاصي.
قال القرطبي رحمه الله تعالى : (في هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج ، وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ،. ويصوبوا آرائهم تقية ، وذكر الفري عن أبي جعفر محمد بن علي رض الله عنه أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.
قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافرا ، قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ، وكنائسهم ، والبيع ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تعتقد مودتهم ، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم ، ثم ذكر بعض الآثار عن السلف في هجر المبتدعة) ا هـ (15)(16).
وقــال الـشـوكاني رحمه الله تعالى : (وفى هذه الآية موعظة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يـحـرفــون. كلام الله ، ويتلاعبون بكتاب وسنة رسوله ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الـفاسدة ، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يـــسـير علـيـه غـير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون ، به شبهة يشبهون بها على العامة ، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر. وقد شاهدنا من هذه المـجـالــســة الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبـلـغـت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها : علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات ، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح، مكان فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه ، فيعمل

بذلك مدة عمره ، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر) ا هـ (17)
- يتبع -

الهوامش :

1- الترغيب والترهيب 3/454-462.
2- معالم السنن 4/112.
3- وانظر : كتاب التعزيز ، لعبد العزيز عامر ، ص (237) ، وما بعدها.
4- أنظر: فتح الباري 8/123-124، 10/497 ? وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي 1/114-150، ومبحث الآثار من هذه الرسالة.
5- تنبيه مهم : هذه القاعة مشتركة لفظا بين أهل السنة والجماعة وحقيقتها لديهم كما علمت ، وبين الخوارج (لا ولاء إلا ببراء) أي لا موالاة لأبي بكر وعمر رض الله عنهما إلا بالبراءة من أميري المؤمنين عثمان وعلي رض الله عنهما. وبين الشيعة (لا ولاء إلا ببراء) إي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رضي الله عنهم. ومعتقد أهل السنة والجماعة موالاة جميع الصحابة رضى الله عنهم بتزكية الله لهم.
تنبيه آخر : ولدى أهل السنة والجماعة كذلك (بدعية الولاء والبراء) من وجه : بمعنى أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة ، ويتولى من ليسوا كذلك ، كما ذكره ابن بطة رحمه الله تعالى في : الشرح و الإبانة ،ص(341)رقم /472.
6- فنح الباري 1/60-62
7- السلسلة الصحيحة /380
8- فتح الباري 1/62.
9- الدرر السنية 4/208 - 216 ، تحفة الإخوان/4-31.
10- كما في : العقيدة للصابوني م سنة 449 هـ رحمه الله تعالى/100 - 2 0 1 , وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي 1/114-150 ,وفي كتاب السنة للخلال : باب مجانبة من قال القرآن مخلوق كما في الفتاوى 28 /210 - 213 ، والاعتقاد للبيهقي : باب النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم /145 ، والشرح والإبانة لابن بطة/54 1 ، 275-276 ، 282.
11- رسالته في العقيدة /100 ، 112.
12- انظر في جمع هذه الآيات مع وجوه الاستدلال بها في : الدرر السنية 4/57 - 68 ذكر عشرين آية ، وتحفة الإخوان/4 - 15 ذكر ست عشرة آية.
13 - الاعتصام ا/62 - 67، 2/258-102،103.
وكتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي/388 - 389. وتفسير ابن كثير لقوله تعالى :((قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا)) الآية/103-104 وفي الفوز الكبير للدهلوي/26 قال : (وبالجملة إذا

قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا بل الواقع انه ما من بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجرد اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث : لتتبعن سنن من قبلكم).

14 -انظر : تفسير القرطبي 7 /12-13. فتح القدير للشوكاني 2 /122.

15 -تفسير القرطبي 7/12 - 13.

16 - ستأتي في توظيف الصحابة لهذه السنة.

17 - فتح القدير 2/122.

نقد

قراءة في فكر مالك في نبي
-3-

محمد العبدة

يرى مالك بن نبي أن من عوائق النهضة الحـديـثـة الأمـراض الاجـتـماعـية والفكرية التي أصابت المسلمين نتيجة عهود الضعف والانحطاط ، وقد ذكرنا في نهاية المقال السابق أمثلة على ذلك ، ونتابع في هذا العدد بإذن الله آراء هذا المفكر في تشخيص الداء.

طغيان عالم الأشخاص :

عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنقاذهم من الحالة التي هم عليها بـ (البطل القادم) الذي ينتظرونه دون أن يقوموا بجهد يذكر. فالخـلاص لا يـتـم بتجـمـع أناس على مبدأ يدافعون عنه ، ويتفانون فيه ، ويتـقـنـون فـن التعاون ؛ بل بالرجل الـذي يجـمـعهم ويوحدهم ، وقد يطول انتظارهم وهم يمنون أنفسهم بالأماني ، وهكذا نسمع الخطباء لا يفـتـأون يـذكـرون (أيـن صلاح الدين) أو (قم يا صلاح الدين) ، فهم يريدون (صلاحاً) آخر ينقذهم ، ولاشك إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الإسلامي ، وهـو أحـيـانـاً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة (1) وقد لا يكون هناك رجل القدر ولكن (رجل النحس) الذي نلقى عليه كل ضعفنا وفشلنا ، وبدلاً من أن نتدبر الأحداث ، ونبحث بطريقة أعمق عن الأسباب الحقيقية لفشلنا يمكن بكل سهولة أن نلصق التهمة بـ (رجل النحس). فعندما وقع انفصال سورية عن مصر عام 1961 قالوا : إن السبب هو رجل النحس (حيدر الكزبري) ولكن من الواضح أن الانقلاب كان لابد واقعا في وجود الكزبري أو في غيابه ، فجيم عوامل التشجيع على هذا الانفصال كانت متوفرة ، سواء من الأخطاء التي وقعت أو من عدم توفر فكرة مضادة للانفصال (2). وقد تتجسد الأفكار بأشخاص ليسوا

أهلا لحملها فتحسب كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمع الإسلامي أو على الإسلام ، وقد تتجسد بأشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهت هذه الأفكار بموتهم ، أو فتر حماس الأتباع ، لقد مارس العالم الإسلامي ، دور البطولة في كفاحه ضد الاستعمار عندما بزغ في سمائه أبطال مثل عبد الكريم الخطابي ، وعمر المختار ، وعز الدين القسام... ولكن مشكلة المسلمين الأساسية لم تحل " لأن من طبيعة هذا الدور أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التي مهدت للاستعمار وتغلغله داخل البلاد " (3) ولا يعني هذا إنكار دور هؤلاء الأبطال ، أو التقليل من شأنهم ، ولكنها العودة إلى الأصل وهو إنشاء تيار إسلامي قوي يتعلق بالمبدأ ويقوم بالجهد الجماعي ،ولذلك جاءت الآية القرآنية حاسمة في هذا الموضوع ، إن الواجب على المسلمين قيادة الدعوة وحمل الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)) [آل عمران:1144]. يركز مالك بن نبي في أكثر كتبه على هذا المرض ، ويطالب المسلمين ، والشباب بشكل خاص ، بأن يتحول للارتباط بالمنهج لا بشخص معين ، لأن هذا الشخص مثل الرأس الذي يقود عربات القطار ، فإذا انحرف انحرف القطار كله ، وهذا الذي يشيره الأستاذ مالك صحيح بشكل عام ولكنه بالغ في تهميش دور الأشخاص مع أنهم هم الذين يحملون الفكرة ويجسدونها عملياً حتى يقتنع الناس بها ، وكلامه فيه شيء من التجريد والمثالية ، وهذا الإسلام ، وهو حق صريح ، إذا لم يحمله أشخاص يتمثلونه ويشرونه بين الناس فلا ينتشر إلا قليلاً.

طغيان الأفكار :

إذا كان هناك طغيان في عالم الأشياء وعالم الأشخاص ، فقد يصل الأمر إلى طغيان في عالم الأفكار ، فعندما يكون المجتمع في حالة مضطربة ، فلا هر بداية دخول الحضارة ، ولا هو خارج تماماً عن الحضارة، في هذه الحالة قد يفقد المتعلم تكيفه مع الوسط الاجتماعي ، أو لا يستطيع أن يقوم بعمل مثمر يرضي ضميره ، عندئذ يلجأ إلى البحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق ، وبدل أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل فهو يتكلم عن الماضي الذي ليس له صلة بالحاضر ، أو يفتعل معارك وهمية ليكون هو أحد أبطالها ، وتدفع المطابع كل يوم عشرات الكتب التي لا تمس الواقع المعاش بل هي هروب مفتعل من الواقع ، وقد تطغى الأمور النظرية على مدرس في الجامعة فيتحدث عن تركيب الأدوية وعن النباتات ويجهد نفسه في وصف بعض النباتات بدلاً من أن يمد يده من النافذة ويقطف واحدة منها ليقدمها إلى الطلبة حية نابضة ، ولكنه مع الأسف يبحث عنها في الكتاب ، فهو كل شئ بالنسبة له (4).

وتد بملغ الخلل في عالم الأفكار ، إلى درجة أن يعرقل المبادرات والجهود ، وهو ما يسميه مالك بن نبي (الأفكار الميتة) (فالبديهيات في التاريخ ، كثيراً ما

قامت بدور سلبي كعوامل تعطيل مثل بديهية : الأرض مسطحة ، فإنها حالت دون اكتشاف أمريكا قروناً طويلة)(5) ، والبوصلة التي ساعدت كولومبس على اكتشاف أمريكا هي من اختراع المسلمين ! ، وقد كان من حكم الطب القديم أن الحرارة مثلاً دواؤها الرطوبة ولا بأس بهذه الحكمة ما لم تكن قيداً يقيد الفكر فلو استسلم الطب لحكمة كهذه مع صلاحيتها في بعض الظروف لما وجد (باستور) طريقاً لاكتشاف العلاج النافع لداء (الكلب) مثلاً (6).
و لا شك أن هناك كثيراً من الأفكار خذلت أصحابها لأنها لا تحمل أصولاً صحيحة ، فكم أهدر من الوقت في جدل ومناقشات ، وكم سودت من صفحات مبنية على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، وكم عاش المسلمون متأثرين بأفكار الصوفية التي تدعو إلى البطالة والزهد غير المشروع حيث كان مثلهم الأعلى (المجاذيب).

الحق والواجب :

يميل الفرد بطبيعته إلى نيل حقه ، وقد ينفر من القيام بواجبه ، والأمة التي تصاب بمرض (السهولة) وعاشت قروناً من التخلف ، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيراً هو المطالبة بالحقوق ، ونسيان الواجبات ، فهي تشبه الكائن (الأميبى) المتبطل ، حتى إذا رأى فريسة هينة ابرز إليها ما يشبه اليد ليقنصها ، ثم يهضمها في هدوء وبقى هذا ا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء الاستعمار لم يدع له شيئاً فتحرك ضميره (أي معدته) فمد يده إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق) (7).
وكان هذا منشأ سياسة الدجل التي مارسها من يتقن هذه الأدوار ، وللمطالبة بالحقوق إغراء شديد فهي كالسم لا يجذب الذباب ويجتذب الانتفاعيين ، بينما كلمة الواجب لا تجتذب غير (النافعين) (8) ، وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب ويلعبون بمفتاح (الحقوق) فسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات وتتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة ومجلس الأمن والرأي العام العالمي ولكن ما من مجيب ، لأن هذه الأصنام ما نصبت إلا لتخدير الشعوب وتعليمها لغة الاستجداء.
وعلى الصعيد السياسي فإن كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق وتمزق ، وهكذا ما خرجت دولة من دول العالم الثالث من ربقة الاستعمار إلا وتناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة ، بدلاً من أن يتكلموا عن الواجبات ، وهذا ما حصل في الجزائر ، واليمن الجنوبي ، ونيجريا ، والكونغو ... (9).
ومن الأمثلة التي ترويها ذاكرة الأستاذ مالك بن نبي حول هذا الموضوع :
"شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلاً من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري وهي قضية الأمية ، يقفون منها موقفاً جديراً بالملاحظة ، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات الطويلة

لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير ، موضحين نتائجه المنكرة في حياة الفرد ، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية ، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تتقطع أنفاسهم عن الكلام ، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها ، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها ، لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام 1940 قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحله بالنسبة للطائفة اليهودية (مسايرة لألمانية الهتلرية) وشعرت الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء ، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر ، وإنما اجتمعت النخبة فيها ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها ، وحددت موقفها بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم ، وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة ، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتفوق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامى اليهودي أغزر علماً من زميله الجزائري ، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة" (10).

مثال آخر يتذكره ابن نبي وهو يحلل هذه المشكلة : " وبدلا من أن تكون البلاد (الجزائر) ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات فإنها أصبحت منذ سنة 1936 , سوقاً للانتخابات ، وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية ، وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب ، أو قطيع انتخابي يقاد إلى صناديق الاقتراع ، وفى هذا اختلاس أي اختلاس للعقول التي أشرفت على قطف ثمار نهضتها " (11).

وهذا المرض لا يزال مسيطراً على العقول ، فكثيراً ما نسمع في قرية من القرى أو حي من الأحياء المطالبة بحقهم في فتح طريق أو تنظيف شارع أو فتح مدرسة ، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس القيام بالواجب عندما أعطى الذي جاء يطلب صدقة حبلا وفأسا وأمره أن يحتطب ولا يتكفف أيدي الناس(12).

العقلية الذرية :

يقصد بهذا المصطلح أن بعض الناس "ينظر إلى الأحداث والوقائع مجزأة منفصلة فردية ، كأنما في مجموعها لا تكون حلقة من التاريخ وإنما كوماً من الأحداث" (13).

وهذه العقلية موجودة في أوساط المسلمين بسبب بعدهم عن (الفعل الحضاري) وبسبب التكوين الاجتماعي الذي ورثناه ، ومن مظاهرها "أن جهودنا في كل مجال لا تتسمم بالجهد المتواصل ولكن بالمحاولات المتتابعة ، فما أن يبدأ نشاط ما حتى يذهب فجأة كأنه وثبة برغوث أو كأنه مركب على صورة الخط المنقط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً ،

ولنعتبر على سبيل المثال كم منذ نهاية الحرب ظهرت مجلة في بلادنا ثم اختفت بنفس السرعة" (14).
ومن مظاهر هذه العقلية "العجز عن أن نعقد صلات بين الأفكار وعن أن نعطي لمناقشة مشكلة ما حركة متصلة مطردة لا يحجل فيها الفكر من نقطة إلى نقطة ، بل يطرد دائماً من مقدمة إلى نتيجة" (15) "وإذا كان من الممكن تجزئة المشكلة لتجزئة حلولها (فكل الطرق تؤدي إلى روما) ولكن الطريق عبر المنهج هو أطول الطرق بلا شك ، إن طريق الحضارة لا يمكن خطه بإقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسدٍّ هنالك ، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات" (16).
ولو أننا تعودنا الربط والتعميم وتتبع الجزئيات من الكليات لما استغربنا تشابه المشكلات الخارجية التي يواجهها العالم الإسلامي ، فالعالم الذي نواجهه (الاستعمار) لا تأتى فيه الأشياء عفواً وإنما كنتائج لخطط محكمة ، فعندما تفشل بعثة علمية في بلاد الغرب أو أحد أفراد هذه البعثة نفاجأ : كيف حصل هذا ؟ (17).
ولو تتبعنا بعض الظواهر المحيرة في العالم الإسلامي لوجدنا أن المحرك لها واحد ، ولكن عقلية تجزئ الأشياء تجعلنا لا نشعر بالقاسم المشترك فيما بينها.
إن هذا النزوع نحو تجزئة مشكلة الحياة إلى ذرة ذرة ، وهذا العجز عن التعميم ليس من خواص الفكر المسلم كما يحاول أن يؤكده المستشرق الإنكليزي (جب) "بل هو طراز للعقل الإنساني بعامة عندما يقصر عن بلوغ درجة معينة من النضج ، وإن التراث الثقافي الخطير الذي خلفته الحضارة الإسلامية يظل شاهدا على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية بالإحساس (بالقانون) وهو يستلزم القدرة على التركيب ، وأصول الفقه الإسلامي أكبر دليل على ذلك"(18).

التعالم والحرفية في الثقافة :

عانت مجتمعاتنا في عصور الضعف مشكلة (الأمية) والجهل ولكنها عندما حاولت النهوض أصيبت بمرض مستعص وهو (التعالم) أو الحرفية في التعلم وحمل اللافتات العلمية " وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول ، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيّره ضميرا فعّالاً ، بل ليجعله آلة للعيش ، وسلماً يصعد به إلى(الوظيفة) ، وهكذا يصبح العلم عملة زائفة غير قابلة للصرف ، وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق ، فالجاهل هنا لا يقوّم الأشياء بمعانيها ، ولا يفهم الكلمات بمراميها ، وإنما بحسب حروفها ، وكلمة (لا) تساوي عنده (نعم) لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية.
وكلام هذا المتعالم ليس (كتهتهة) الصبي فيها براءة وإنما (تهتهة) يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمن" (19).

لقد تحولت اللافتات العلمية زينة تتصدر المجالس، وألقاباً للتفاخر ذلك أن نزعة المديح والألقاب قد أسرتنا منذ عهود الانحطاط ، فألقاب مؤلف أي كتاب لابد أن تملأ نصف الصفحة الأولى على الأقل ، فهو العالم العلامة والحبر الفهامة...
ونظرة إلى الصحف الآن التي تعيش على المدح تكفى لنعلم كم نعيش تحت أسر الكلمات الطنانة التي ليس لها معنى ، وإنما هو الغرام الأحمق بمجرد الكلام ، "وفى هذا ضرر كبير على كيان الأمة لأنها تفقد حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح"(20) ، ويصبح المثل الأعلى من هو أقدر على الكلام ولو لم يكن له أي دور اجتماعي "وقضية الجهل لا تعالج بمجرد وضع البرامج التعليمية ، بل يجب أن يكون أولاً عملية تصفية نفسية ، وبكلمة واحدة أن يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة"(21).
هذه نماذج لبعض الأمراض التي تعيق النهضة كما يراها مالك بن نبي، ولم نتعهد الاستقصاء ، وقد يقال هنا : كيف لا يذكر أصل الداء وهو بعد الناس عن فهم العقيدة الإسلامية الصافية ، عن فهم التوحيد كما جاءت به الرسل عليهم السلام ، وللجواب على هذا نقول :
إن مالك بن نبي كمفكر يهتم بشؤون النهضة والإصلاح ويشخص الأمراض الاجتماعية التي أصابت العالم الإسلامي والتي تعيقه عن النهوض ، فقد يكون المسلم صاحب فهم سليم ولكن فيه هذه الأمراض ، فهو يعالج هنا كالطبيب المتخصص.
2 -كان مالك بفطرته يعلم أن الرجوع إلى منهج خير القرون هو الصواب ، ولذلك انتقد منهج المدرسة الإصلاحية في إحيائها (لعلم الكلام) يقول منتقداً الشيخ محمد عبده الذي "ظن كما ظن فيما بعد الدكتور محمد إقبال أن من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس ، بيد أن كلمة (علم الكلام) ستصبح قدراً مسلطاً على حركة الإصلاح الذي حاد بها جزئيا عن الطريق"(22).
"وعلم الكلام يمجد الجدال ويشوه المشكلة الإسلامية ، ويفسد طبيعتها ، حيث يغير المبدأ السلفي في عقول المصلحين أنفسهم" (23).
3- إن مالك كغيره من المفكرين وكثير من المسلمين يظنون أن العقيدة هي الإيمان بالله ولا يفرقون بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقد يؤمن الإنسان بوجود الله ، ولكنه يعرض عن عبادته والخضوع لشرعه ، والرسل دعت الأمم لعبادة الله وحده ، يوضح تصوره هذا قوله : " والمسلم - حتى ما بعد الموحدين - لم يتخل مطلقا عن عقيدته ، فلقد كان مؤمنا ، ولكن عقيدته تجردت عن فاعليتها ، وإن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه " (24). إن ضعفه في

العلوم الشرعية جعله لا يتبين أهمية فهم التوحيد فهما صحيحاً ، وأن الخلط في هذا الموضوع هو أس البلاء.

الهوامش :

1- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار /104.
2- المصدر السابق /104.
3- شروط النهضة /23.
4- مشكلة الأفكار /106.
5- تأملات /189.
6- المصدر السابق /191.
7- وجهة العالم الإسلامي /131.
8- بين الرشاد والتيه /129.
9- بين الرشاد والتيه /29.
10- تأملات /140.
11- شروط النهضة /48.
12- معنى لحديث متفق عليه.
13- الصراع الفكري /53.
14- في مهب المعركة /154،194.
15- فكرة الأفرو آسيوية /79.
16- المصدر السابق /80.
17- الصراع الفكري /34.
18- وجهة العالم الإسلامي /15.
19- شروط النهضة /127.
20- وجهة العالم الإسلامي /52.
21- تأملات /191.
22- وجه العالم الإسلامي /47.
23- المصدر السابق /49.
24- المصدر السابق /48.

تعقيب على مقال

مدى تدخل الدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال للشيخ عثمان جمعة ضميرية

عبد العزيز بن حمد المحمد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد :

فـقـد كـتـب الشيخ الفاضل : عثمان جمعة ضميرية مقالا في مجلة (البيان) (العدد الثالث عشر) بـعـنـوان:"مـدى تـدخـل الـدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال"، وخلص إلى مشروعية فرض الضرائب بشروط ذكر بعضها. وقد كان لي بعض الملاحظات على ذلك المقال فأحببت أن أذكر شيئا منها ، ولست متعرضا لتحرير القول في المسألة ، فأدع ذلك لعلمائنا حفظهم الله.
أولاً : الـكـلام الـذي نـقـلـه الكاتب حفظه الله عن الغزالي والجويني والشاطبي مرتبط كله بالجهاد والاستعداد له وحفظ الأمن ، وأين ذلك من الضرائب المتنوعة التي تفرض اليوم ، ولا تستخدم في الضروريات فقط ، بل تتعدى ذلك إلى الحاجيات والتحسينات ، ومجالات الفساد الـمـتـنوعة. وإنما يصح الاسـتـشـهاد بـكـلام الـعـلـمـاء الـمـذكـوريــن - رحمهم الله - على الضرائب التي يحتاج إليها في القيام بالواجبات فقط.
ثانياً : قال الشيخ - حفظه الله - ص 47 : "وممن (في الأصل: مم) عرض لهذه المسألة ، وأيدها بالنصوص الشرعية والحجج القوية، الإمام ابن حزم في كتابه العظيم (المحلّى).. ".
والواقع أن كلام ابن حزم ليس عن الضرائب وحكمها ، وإنما هو عن إلزام الأغنياء بسد حاجات الفقراء ، إذا لم تقم الزكوات بهم. وأما موقفه من الضرائب ، فقد ذكره في كتابه " مراتب الإجماع" ، فقال ، ص121:
"واتفقوا أن المراصد الموضوعة للمغارم على الطرق وعند أبواب المدن وما يؤخذ في الأسواق من المكوس على السلع المجلوبة من المارة والتجار ظلم عظيم وحرام وفسق ، حاشا ما أخذ على حكم الزكاة وباسمها من المسلمين من حول إلى حول مما يتجرون به ، وحاشا ما يؤخذ من أهل الحرب وأهل الذمة مما يتجرون به من عشر أو نصف عشر ، فإنهم اختلفوا في كل ذلك ، فمن موجب أخذ كل ذلك ومن مانع من أخذ شيء منه إلا ما كان في عهد صلح أهل الذمة مذكورا مشترطا عليهم فقط ". وهذا الذي اعتمده شيخ الإسلام كما سيأتي.
ثالثاً : قال الشيخ - حفظه الله - ص 44 : "عرض فقهاء الشريعة الإسلامية توظيف الأموال على الأغنياء ، عند الحاجة ، وقرروا جواز ذلك...".
وقد يفهم من الإطلاق أن هذا قول العلماء كافة ، وليس الأمر كذلك ! وأول من عرف عنه القول بمشروعية توظيف الوظائف أبو المعالي الجويني ، وهو يقول عن نفسه في "غياث الأمم" بتحقيق الديب، ص266:
"لست (أحاذر) إثبات حكم لم يدونه الفقهاء ، ولم يتعرض له العلماء ؛ فإن معظم مضمون هذا الكتاب لا يلغي مدونا في كتاب ، ولا مضمنا لباب... فليكن الكلام في الأموال وقد صفر بيت المال واقعة لا يعهد فيها للماضين مذهباً ، ولا يحصل لهم مطلباً ، ولنجر فيه على ما جرى عليه الأولون إذ دفعوا إلى وقائع لم يكونوا يألفوها ، ولم ينقل لهم مذاهب ، ولم يعرفوها". وتبع الجويني

على كلامه تلميذه الغزالي، ونقل الشاطبي كلام الأخير موافقا له كما وافقهم على ذلك علماء آخرون. وقد خالف في ذلك غيرهم مثل ابن حزم كما مرّ معنا، وابن تيميه كما سيأتي.

ومما يوضح الخلاف في المسألة من قديم ، ما ذكره التنبكتي في كتابه المطبوع بهامش "الديباج المذهب" في ترجمة الشاطبي صاحب "الاعتصام" ، إذ قال ص 49 :

"وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس عند ضعفهم وحاجتهم، لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقي في كتاب الورع قال : توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة ولاشك عندنا في جوازه وظهور مصلحته في بلاد الأندلس في زماننا الآن لكثرة الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين ، سوى ما تحتاج إليه الناس، وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس. وإنما النظر في القدر المحتاج إليه من ذلك ، وذلك موكول إلى الإمام... وكان خراج بناء السور في بعض مواضع الأندلس في زمانه موظفاً على أهل الموضع ، فسئل عنه إمام الوقت في الفتيا بالأندلس الأستاذ الشهير أبو سعيد بن لب فأفتى أنه لا يجوز ولا يسوغ ، وأفتى صاحب الترجمة بسوغه، مستنداً فيه إلى المصلحة المرسلة ، معتمداً في ذلك إلى قيام المصلحة التي إن لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت... ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور...".

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد قال (مختصر الفتاوى المصرية،ص 455):

"... في أوائل الدولة السلجوقية أفتى طائفة من الحنفية والشافعية - إذا لم يكن في أموال بيت المال كفاية لرزق الجند الذين يحتاج إليهم في الجهاد - أن يوضع على المعاملات ، وأنكر ذلك غير هؤلاء ، وحكى أبو محمد بن حزم في كتاب الإجماع : إجماع العلماء على تحريم ذلك، وقـد كان نــور الـديـن مـحـمـود الشهيد بن زنكي قد أبطل جميع الوظائـف المحدثة في الشام والجزيرة ومصر والحجاز، وكان أعرف الناس بالجهاد ، وهو الذي أقام الإسلام بعد استيلاء الإفرنج والقرامطة على أكثر بلاد ه".

وقال أيضاً في "الأموال المشتركة " (1):".. وأما من بعد الخلفاء الراشدين فلهم في تفاصيل قبض الأموال وصرفها طرق متنوعة: منها ما هو حق منصوص عليه موافق للكتاب والسنة، ومنها ما هو اجتهاد يسوغ بين العلماء إذا كان الإمام من أهل الاجتهاد وله علم ، وقد يسقط الوجوب بأعذار ويباح المحظور بأسباب ، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ، ومنها ما هو اجتهاد ولكن صدوره لعدوان من المجتهد أو تقصير منه شاب الرأي فيه الهوى ، فاجتمعت فيه حسنة وسيئة ، وهذا النوع كثير في الملوك وغيرهم جداً ، ومنه ما هو

معصية محضة لا شبهة فيه بترك واجب أو فعل محرم... ولم أعلم أن في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية وظفوا على الناس وظائف تؤخذ منهم غير الوظائف التي هي مشروعة في الأصل... وكانت سير الملوك تختلف... ومنهم من يقصد اتباع الشريعة وإسقاط ما يخالفها ، كما فعل نور الدين لما أسقط الكلف السلطانية المخالفة للشريعة التي كانت تؤخذ بالشام ومصر والجزيرة ، وكانت أموالا عظيمة جداً ، وزاد الله البركات ، وفتح البلاد ، وقمع الأعداء بسبب ذلك ، لما عدل وأحسن.
ثم هذه الوظائف السلطانية التي ليس لها أصل في كتاب ولا سنة ، ولا ذكرها أحد من أهل العلم المصنفين في الشريعة ، ولا لها أصل في كتب الفقه من الحديث والرأي ، هي حرام عند المسلمين ، حتى عند من يأخذها ، ويعرف حكم الله ، وقد ذكر ابن حزم إجماع المسلمين على ذلك. ومع هذا ، فبعض من وضع بعضها وضعه بتأويل واجتهاد علمي ديني ، واتفق على ذلك أهل الفتوى والرأي من بعض علماء ذلك الوقت ووزرائه... في نصف المائة الخامسة حدثت أمور منها بناء المدارس والخوانق ووقف الوقوف عليها ... وصنف أبو المعالي الجويني كتاباً للنظام ، سماه غياث الأمم... وذكر فيه قاعدة في وضع الوظائف السلطانية عند الحاجة إليها للجهاد ، فإن الجهاد بالنفوس والأموال واجب ، بل هو من أعظم واجبات الدين ، ولا يمكن حصول الجهاد إلا بالأموال التي تقام بها الجيوش ، إذ أكثر الناس لو تركوا باختيارهم لما جاهدوا لا بأنفسهم ولا بأموالهم ، وإن ترك. جمع الأموال وتحصيلها حتى يحدث فتق عظيم من عدو داخلي أو خارجي تفريط وتضييع ، فالرأي أن تجمع الأموال ، وترصد للحاجة ، وطريق ذلك أن توظف وظائف راتبة لا يحصل بها ضرر ، ويحصل بها المصلحة المطلوبة من إقامة الجهاد.
والوظائف الراتبة لابد أن تكون على الأمور العادية ، فتارة وظفوها على المعاوضات والأملاك ، مثل أن يضعوا على البائع والمشتري في الدواب والحبوب والثمار وسائر الأطعمة والثياب مقداراً ، إما على مقدار البيع وإما على مقدار الثمن ، ويضعوا على الجعالات والإجارات ، ويضعوا على العقارات من جنس الخراج الشرعي ، فكان ما وضعوه تارة يشبه الزكاة المفروضة المشروعة ، وتارة يشبه الخراج الشرعي ، وتارة يشبه ما يؤخذ من تجار أهل الذمة والحرب ، وتارة يشبه المكس.
ومنهم من يعتدي فيضع على أثمان الخمور ومهور البغايا ونحو ذلك ، مما أصله محرم بإجماع المسلمين ، ومنهم من يضع على أجور المغاني من الرجال والنساء...
حقيقة الأمر في ذلك أن هذا من القسم الثالث والرابع ، فإن هذا إذا صدر باجتهاد فهو في الأصل مشوب بهوى ومقرون بتقصير أو عدوان ، وإن التقصير أو العدوان صادر أيضاً من أكثر الرعية ، فإن كثيرا منهم أو أكثرهم لو تركوا

لما أدوا الواجبات التي عليهم من الزكوات الواجبة والنفقات الواجبة والجهاد الواجب بالأنفس والأموال ، كما أنه صادر من كثير من الولاة أو أكثرهم ، بما يقبضونه من الأموال بغير حق ، ويصرفونه في غير مصرفه ، ويتركون أيضاً ما يجب من الأمر والنهى ، فجمع هذه الأموال وصرفها هي من مسائل الفتن...".
وقد أطلت النقل من "الأموال المشتركة" لأهمية الكلام ، ولعدم توفر المصدر عند كثير من القراء فيما أظن.
رابعاً : نقل الشيخ عثمان -حفظه الله -عن بعض العلماء تضعيف حديث فاطمة بنت قيس عن ابن ماجة ، ولفظه : "ليس في المال حق سوى الزكاة" ، وسكت عن حديثها عند الترمذي بلفظ. "إن في المال حقاً سوى الزكاة" ، مع أن الإسناد واحد ، وقد ضعفه العلماء للعلة ذاتها.
وإنما اختلف العلماء في لفظ ابن ماجة : هل هو خطأ من بعض النساخ ، أم هو هكذا ؟ وانظر في ذلك : السنة للبيهقي (4/84) ، وتحفة الأشراف للمزي (12/465) مع تعليق الحافظ في "النكت الظراف" "والأطراف بأوهام الأطراف" لولي الدين العراقي (ص 230)، وانظر كلامه أيضاً في "طرح التثريب" (4/11)، "والتلخيص الحبير" لابن حجر (2/60) ، وحاشية تفسير الطبري لأحمد شاكر (3/344)، وحاشية سنن ابن ماجة بتحقيق الأعظمي(1/ 328).
خامساً. نقل الشيخ عثمان -حفظه الله -(ص 49) عن الشيخ حسن البنا-رحمه الله - قوله : " ومن لطائف عمر رضى الله عنه أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على العنب ، لأنها فاكهة الأغنياء في ذلك الوقت ، والضريبة التي لا تذكر على التمر ، لأنه طعام الفقراء ، فكان أول من لاحظ هذا المعنى في الحكام والأمراء ، رضي الله عنه".
وكيف يقبل مثل هذا في بحث علمي ؟! فكان ينبغي معرفة سند الخبر وصحته قبل نقله.
هذا ما تيسر التعقيب عليه ، والموضوع بحاجة إلى بحث وتحرير ، والله المستعان.
وختاماً أسأل الله لي وللشيخ عثمان التوفيق والغفران ، وأن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.
1- رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، أخرجها الدكتور ضيف الله بن يحيى الزهراني ، عام 1406 هـ ، اعتماداً على مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد ، تحت رقم 13754 ، لكثرة ما في طبعته من تصحيفات ، فقد اعتمدت على صورة المخطوطة الملحق "بملاحظات على تحقيق كتاب الأموال المشتركة" لعبد العزيز ابن إبراهيم المرداس ، نشر دار ابن القيم بالدمام (الأوراق : 4 - 6).

فكر

أضواء على مشاريع
دراسة التراث والعقد الحربي

محمد بن حامد الأحمري

بدأ غير المسلمين دراسة التراث الإسلامي منذ ما يزيد عن قرن ونصف وامتدت هذه الدراسات لتغطي مساحة واسعة في العلوم الإسلامية لا تدع شيئاً إلا كان لها فيه رأي. تلد الدراسة انطلقت من المنهج النقدي للفكر اليوناني وللكنيسة الأوربية. وتعاملت مع العلوم الإسلامية بالأسلوب نفسه.

ونحن لا نطالب هؤلاء الدارسين بما يفوق طاقتهم وانغلاق ثقافتهم ، والانغلاق المنهجي هو أبرز مقومات الفكر الغربي ، إذ القاعدة عندهم أن فكر العالم وتاريخه هو تاريخ أوربا موسعاً وذلك ما تشهد به كل المدارس النقدية والمذهبية هناك ، ولا يفسر هذا القول بأنهم جهلة بما عند غيرهم ، هذا مالا نتحدث عنه هنا ، إنما المراد أن كل علم أو ثقافة خضعت للأسلوب النقدي الأوربي المعد مسبقاً للأجواء الوثنية وعصور الظلام كما يسمونها سنضرب هنا مثالين سريعين لهذه القضية حتى يمكننا أن نتجاوز إلى ما نريد :

1- المستشرق فون كريمر عندما درس التاريخ الإسلامي كان يعيش فترة انتعاش القوميات الأوربية ، ويشاهد القومية الألمانية في بنائها ومجابهتها للآخرين فتناول التاريخ الإسلامي ، وفسره تفسيراً قومياً يناسب المسار الذي يعانيه الكاتب ، وهكذا رأى أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيام الدولة المسلمة إنما كان حاجة قومية عربية.

2 -المثال الآخر الكاتب الفرنسى الماركسي مكسيم رودنسون وهو كاتب معاصر لم يزل يخبط ويخلط وتتبعه الإمعات في العالم الإسلامي يصدر كل يوم دراسة ماركسية للتاريخ الإسلامي ، وهكذا تجد روح اليسار الفرنسي أو الأمريكي في دراسته العلوم الإسلامية.

دراسة أحمد أمين :

وعندما ندرس هذه الموجات في بلادنا الإسلامية تواجهنا دراسات حديثة للتراث الإسلامي كان أولها إنتاج أحمد أمين في مشروع واسع وجاد اهتم بالنواحي العقلية والثقافية لدى المسلمين، وهذا المشروع نشأ في أحضان المنهج الاستشراقي إذ اتفق ثلاثة من أساتذة كلية الآداب في القاهرة أحمد أمين وعبد الحميد العبادي وطه حسين على أن يقوم الأول بدراسة الحياة العقلية ، وأن يدرس العبادي الحياة السياسية ، وطه حسين الحياة الأدبية ومشروع أحمد أمين جزء من كتاب كبير يضم هذه الأقسام الثلاثة وقد قرأ الثلاثة مشروع هذا العمل وأقروه.

وأحمد أمين شيخ أزهري تمكن من علوم الشريعة واللغة العربية ، ثم درس ودرّس في مدرسة القضاء الشرعي ، واتصل بمديرها عاطف بك بركات ، وكان صاحب تعليم أزهري وغربي في انجلترا ، وأيضاً كان ملتزماً بتوجه عقلي صريح. يقول أحمد أمين : " فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل ، لم ولا أسمح لنفسي بالجدل العقلي في مثل هذه الموضوعات فالدين فوق العقل ، فإذا جاء فيه ما فوق العقل آمنا به ، لأن علم الله فوق علمنا ، والله أعلم بما يصلحنا ويغيرنا"
"وعاطف بك بركات يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا نفهم حتى نفهم ، وكان له غرام بالبحث وصبر على الجدل وكان من أثر هذا الجدل الديني أنى أعملت عقلي في تفاصيل الدين وجزئياته" ويقول في موضع آخر : "وقد أثر في أثراً كبيراً - يعني أستاذه عاطف - من ناحية تحكيم العقل في الدين ".
هذه النظرة العقلية الغربية التي لم تكن محدودة عنده أفسدت عليه جوانب خطيرة في كتبه ، إذ اضطر إلى مسايرة المعتزلة ، وإلى الطعن في الحديث وكذا أفسد عليه تقديسه لمناهج المستشرقين وقد صرح بحبها واحترامها واستفادته منهج البحث منها ، ولا يعيبه هنا أن استعار منهج البحث ولكن الذي حدث له هو نقل الأفكار والنظريات والبحث لها عن شواهد فيما يدرسه.
ومن الغريب أنه وهو يدرس هذه القضايا يقول في فجر الإسلام :"مسلكنا في سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث أن نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السند ، ومن ناحية المتن" وفى التطبيق يساوي بين ما يلي : كتب الحديث ، وكتاب التسلية والكذب الواسع "الأغاني" وكتب المستشرقين حتى لا تكاد تخلص من (نولدكه) و (براون) و (دي ساسي) وغيرهم.
خلاصة ما وقع لأحمد أمين التورط ما بين العقلانية الحديثة والاعتزال والمستشرقين وعدم التمييز في المصادر ، وعلى الرغم من كل هذه العيوب فعمله لم يكن مسبوقاً بشيء يفيد منه ويجنبه تلك العيوب وهو خير من كثير ممن جاءوا بعده ودرسوا القضايا نفسها ، ولا يفارقك الإحساس بوجود روحه الإسلامية وثقافته الشرعية فيما كتب مما يدعو للتعاطف والتقدير ولعله أحسن النية ولكنه كان ضحية لموجة التحديث والعقلنة وبداية المشاريع العلمانية التي لم يدرك أبعادها.
أما المشاريع الأخرى في دراسة التراث فمن أهمها الدراسة الشيوعية والتي يعد أبرز أفرادها د.حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، والدكتور طيب تزيني ، وقريباً من هذا مشروع محمد عابد الجابري في كتبه (تكوين العقل العربي) و (بنية العقل العربي) و (نحن والتراث") والذي لا يساير المنهج الماركسي تماماً في تقليديته ولكن يستفيد

من اليسار الفرنسي ويراوغ مع عدم وضوح في مدرسته الفكرية وهو في النهاية تلميذ وفّي ومقلد لـ (ميشيل فوكوه) من رواد الفلسفة البنيوية الكبار.

المدرسة الماركسية :

المدرسة الماركسية في دراسة التراث هي أكثر إنتاجاً وأكثر تقليدية وجفافاً ، كما إنها لا تقدم شيئاً يستحق الاهتمام أو الجدة ، لم ؟ لأن الماركسيين في العالم يعتقدون أن فلاسفتهم الأوائل قد قاموا بعملية التفكير والتقرير ، وفرغوا منها فما على هؤلاء سوى البحث عن الشواهد والتطبيق ، وكان أول روادهم بندلي جوزي في كتابه "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" والذي يشيد فيه بالإسماعيلية ومحافظتهم على مطلبهم الأكبر المثالي ومذهبهم الاشتراكي ، ويتباكى جوزي على فقدان التعاليم الاشتراكية للقرامطة وعلى نسيانهم لها.

ويدأب هؤلاء على الرفع من شأن المنحرفين والمنحلين والساقين بل والذين خانوا بلادهم وقومهم ، فبندلي جوزي يمجد بابك الخرمي ويشيد باشتراكيته في الوقت الذي يذكر في معاهداته مع امبراطور الروم ضد المسلمين ، ويتمنى لو قامت الدولة الشيوعية لبابك على أنقاض دولة المعتصم العباسي ، ويصف هذا المضبوع أفكار بابك وطموحاته أنه لو نجح لأقام "دولة جديدة أساسها العدل والإخاء والمساواة" ، هكذا أي عدو للإسلام سيكون عندهم خيراً وأولى حتى لو دمر دمار الزنج وثورتهم.

وثورة الزنج في رأي هؤلاء من أعظم الثورات في العالم : ثورة العمال والبروليتاريا ، الثورة التي يشيب لهولها الولدان لما فعل الزنج من قتل لكل الناس للعلماء والأطفال والنساء واستباحة البصرة واستعباد أهلها هي عند أصحاب هذه الدراسات الماركسية قمة التقدمية و الاشتراكية.

اليسار الإسلامي :

أما أعمال د. حسن حنفي وما يسمى باليسار الإسلامي فقد لخص في مقدمته لكتاب الحكومة الإسلامية نزعته الثورية على ما فيها من سخرية ونقد لمذهب أهل السنة ، وهو في حماسته لقضايا المنهج الثوري ينسى مواقع الاتفاق والاختلاف مع هذه الفرق.

وفى كتابه التراث والتجديد الذي يرى أنه "أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لكتابه تاريخ العرب والبربر ولكنه هذه المرة عن النهضة وليس عن الانهيار.

نظرات الرجل النقدية وسخريته من الواقع والتراث تصل إلى حد غير مؤدب في كثير مما يتناول بالبحث وهو يرى نفسه ثائرا إسلاميا ولكن من منطلقات يدرك هو تماما أنها غير إسلامية ، وإلا فما جدوى الاحتقار لما لدى المسلمين ، وهل الاحتقار هو الحل ومن يراجع بعض ما كتب يجد المنطلقات الطبقية فيما يكتب ، وثوريته تجعله لا يتأدب أحياناً حتى مع لفظ الجلالة ، كما أن الجوانب الإيمانية والروحية لا تكاد توجد في هذه المعالجة غير الإسلامية وبخاصة أن

حنفي فيما يصرح ويكتب يرى أنه يحمل الحل الوحيد النادر ! ولو تأمل بضاعته لعلم أنها غريبة كل الغرابة عن روح هذه الأمة.

الزيارة بين النساء على ضوء الكتاب والسنة -2-

خولة درويش

استئذان الزوج في الخروج :

إن الإسلام يأمر بالنظام في كل الحالات، في العادات والمعاملات، في السفر والحضر، فإذا خرج ثلاثة في سفر دعا إلى تأمير أحدهم ، لذلك وتنظيماً للمجتمع فقد جعل قوامة الأسرة للرجل ، فهو أقدر على القيام بهذا الاختصاص من المرأة ، إذ جعل مجالها الطبيعي يتناسب مع فطرتها النفسية وتكوينها الجسمي ، وهو إمداد المجتمع المسلم بالأجيال المؤمنة المهيأة لحمل رسالة هذا ا لدين.

ولا أحد ينكر فضل الاختصاص من حيث قلة الجهد ، وجودة المردود ، سواء في النواحي المادية أو الإنسانية ، هذه الرئاسة والقوامة تقتضي وجوب طاعة المرأة لزوجها ، وقد جاء في الفتاوى لابن تيمية : (والمرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبويها ، وطاعة زوجها أوجب ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسك و ما لك ".

وفى الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة " وقال الترمذي حديث حسن.

وقد ورد أيضاً في المسند وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان عن ابن أبى أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؛ قال : أتيت الشام فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا تفعلوا ذلك، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . والذي نفسي محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه ".

وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مـع قـيـامـه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها، ونهاها أبواها عن طاعته في ذلك فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها.
وإذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه لم يكن لها أن تطيعه في ذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"(1).
هذا ، وطاعة الزوج ليست تسلطاً منه ، ولا امتهاناً للمرأة ، وانتقاصاً لشخصيتها ، إنما هي من طاعة الله والقربات إليه التي تثاب عليها ويجب أن تعتز بها... وهذا ما يميز المسلمة الواقفة عند حدود الله عن العابثة المتسيبة ، التي لا أب يردها ولا زوج يمنعها ، تخرج من البيت متى تشاء وحيث تشاء ، فتزرع هذا الشر لتحصد الندامة فيما بعد بمشاكل لا تنتهي ، واتهامات كثيرة ، وواقع مرير ، ونتائج وخيمة ، ولا ينجي من ذلك إلا العودة إلى تحكيم شرع الله : ((وَلَهُنَّ مِثْلُ الَذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ))[البقرة: 228]، وهذه الدرجة هي قوامة الأسرة.
(ولا يحل للزوجة أن تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها ، سواء كان ذلك لكونها مرضعاً أو لكونها قابلة أو غير ذلك من الصناعات ، وإذا خرجت من بيت زوجها بغير إذنه كانت ناشزة عاصية لله ورسوله ومستحقة للعقوبة)(2).
وهكذا فخروجها للعمل بغير إذن زوجها نشوز عن طاعة زوجها وعصيان لله ولرسوله فكيف إذا خرجت للتزاور أياً كان السبب ؟!! ولو كان ذلك لزيارة والديها المريضين.
(للزوج منعها من الخروج من منزلها إلى مالها منه بد ، سواء أرادت زيارة والديها ، أو عيادتهما ، أو حضور جنازة أحدهما. قال أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة : طاعة زوجها أوجب عليها من أمها ، إلا أن يأذن لها) (3).
وحتى الخروج للعبادة تحتاج معه إلى إذنه "عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد للعبادة فأذنوا لهن".
وعن ابن حبان من حديث زيد بن خالد : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله "قال القسطلاني : أي إذا أمنت المفسدة منهن وعليهن ، وذلك هو الأغلب في ذلك الزمان ، بخلاف زماننا هذا الكثير الفساد والمفسدين وقد ورد في بعض طرق الحديث ما يدل على أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد وذلك في رواية حبيب بن أبي ثابت عن ابن عمر بلفظ: "لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن" ، وحديث عائشة رضى الله عنها في منع النساء علقته على شرط لو رأى رسول الله ما أحدثته النساء.

وفي رواية عند البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : "إذا استأذنت امرأة أحدكم - أي أن تخرج إلى المسجد أو ما في معناه كشهود العيد وعيادة المريض - فلا يمنعها".
قال القسطلاني. وليس في الحديث التقييد بالمسجد ، إنما هو مطلق يشمل مواضع العبادة وغيرها.
ومقتضى الحديث : أن جواز خروج المرأة يحتاج إلى إذن الزوج) (4).
أما قول القائل : إنهن لا يخرجن من بيوتهن مطلقا لقوله تعالى :((وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ)) فليس بحجة له بدليل قوله تعالى بعدها : ((ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى((والمقصود به عند خروجهن.
(ومعنى هذه الآية : الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى هذا لو لم يرد دليل يخصص جميع النساء ، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة) (5).
(وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً ، وإنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن وهو المقر وما عداه استثناء طارئاً لا يثقلن فيه ولا يستقررن وإنما هي الحاجة وتقضى وبقدرها) (6).
وقد عرف عن أمهات المؤمنين والصحابيات أنهن كن يخرجن في حوائجهن وللمشاركة في الغزو.
(فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى) (7).
وفيه خروج للنساء في الغزو والانتفاع بهن في السقي والمداواة لمحارمهن وأزواجهن وغيرهم مما لا يكون فيه مس بشرة إلا موضع الحاجة.
وهذه أم عمارة تحدثنا حديثها يوم أحد : (خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وأرمى بالقوس حتى خلصت إلّى الجراحة.
وعن عمر رض الله نه عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني) (8).
وتستأذنه صلى الله عليه وسلم أم سنان الأسلمية في الخروج إلى خيبر للسقيا ومداواة الجرحى فقال لها عليه الصلاة والسلام: »فإن لك صواحب قد أذنت لهن من قومك ومن غيرهم فكوني مع أم سلمة«(9).
وفي خيبر أيضاً عن امرأة من بني غفار قالت : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج

معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال : "على بركة الله" فخرجنا معه)(10).
(حتى المقعدة فلها الخروج في حوائجها نهاراً ، سواء كانت مطلقة ، أو متوفى عنها ، لما روى جابر قال : طُلقتْ خالتي ثلاثاً فخرجت تجذ نخلها فلقيها رجل فنهاها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اخرجي فجذي نخلك لعلك أن تتصدقي منه أو تفعلي خيرا".
وروى مجاهد قال : "استشهد رجال يوم أحد فجاءت نساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن. يا رسول الله نستوحش بالليل أفنبيت عند إحدانا فإذا أصبحنا بادرنا إلى بيوتنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحدثن عند إحداكن حتى إذا أردتن النوم فلتؤب كل واحدة إلى بيتها" (11).
ويدخل الرسول صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وعندها امرأة قال : من هذه ؟ قالت: فلانة ، تذكر من صلاتها ، قال: "مه ، عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، فكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه" (12) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان.
كما طلب من الشفاء - وهى من المهاجرات الأول وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن - قال لها صلى الله عليه وسلم : »علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة«(13).
وكيف يكون تعليمها إلا بلقائها معها وخروجها إليها.
فهذه كلها حالات تخرج فيها المرأة بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وإقراره بخروجها أو أمره وإذنه الصريح به ، فلو كان المقصود بالقرار في البيت عدم الخروج المطلق لنهى عن الخروج ولما أذن به.
ثم إن الحبس الدائم للمرأة في البيت ما هو إلا عقوبة شرعية - كان قبل أن يشرع حد الزنا فنسخت هذه العقوبة بالحد الشرعي - أقول كان الحبس في البيوت للمرأة التي تأتي الفاحشة وذلك لقوله تعالى : ((واللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)) [النساء:15].
أما المرأة العفيفة الملتزمة بأحكام دينها ، والتي تراقب الله تعالى في حركاتها وسكناتها فهي تقدر شرف مهمتها وعظم مسئوليتها : إنها إن قرت في بيتها فهي في عمل واعٍ يقظ ، لا فراغ اللاهيات ولا تفاهة العابثات من ربات الفيديو والأزياء والسينما...
إنها تعد لأمتها الإسلامية أبطالها الذين يستعيدون مجدها فتربيهم على الاعتزاز بقيم الإسلام ليفدوه بأنفسهم إن واجههم الخصوم ، ويعملون وسعهم لإعلاء كلمة الله.
وإن أرادت الخروج من بيتها فلن يكون ذلك إلا إن كانت المصلحة الشرعية في الخروج راجحة عنها في البقاء.

وإن خرجت : فبالحدود المشروعة وبالطريقة المشروعة ، تستأذن الزوج المسلم ولا تخرج بغير إذنه ، وإلا اعتبرت عاصية لمله ولرسوله ، وبالمقابل فزوجها المسلم يرعى الله فيما ائتمنه ، فيحرص على أن يبعدها عن الشبهات ومواطن الزلل. ويأخذ بيدها إلى كل خير ، ليشاركها أجرها سواء كان زيارة أقاربها وصلتهم أو بر والديها ، أو صلة أخواتها في الله ، أو العلم المشروع.
ثم إن الأصل أن ينبني البيت المسلم على المودة والرحمة ، لا الغلظة والتسلط. فالزوج والزوجة كلاهما يحكم الشرع ويزن الأمور بمقياسه ، فلا يتعسف الرجل في استعمال حقه الذي منحه الله إياه ويحفظ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرأة : " استوصوا بالنساء خيراً " وبالمقابل لا يجمح الهوى بالمرأة ولا تستكبر عن طاعة زوجها فتكون في عداد الناشزات.
أما عند عدم الزوج لوفاته ، أو لعدم زواج المرأة. فتستأذن أبويها وهذا من برهما وحسن صحبتهما فهما أحرص الناس على حسن سمعتها وجلب الخير لها.

الهوامش:

1- الفتاوى لابن تيميه 32/من260-264 بإيجاز.
2- الفتاوى لابن تيمية 32/281.
3- المغني 7/20.
4- عون الباري 2/285-287باختصار.
5- أحكام القرآن للقرطبي 14/179.
6- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، 5/2859.
7- شرح صحيح مسلم 12/88.
8- الإصابة 4/457.
9- الإصابة 4/443
10- البداية والنهاية لابن كثير ، 4/204.
11- المغني 7/226.
12- فتح الباري 1/101.
13- الإصابة 4/333.

دفاع عن اللغة العربية

منصور الأحمد

(يعلم كل من له إلمام بأسرار الـعـربـيـة أن الأسـلـوب الـمصطلح عليه في ترتيب معاجمها لا يناسب حتى ولا الكثيرين ممن نالوا قسطاً وافراً من الإحـاطــة بقـواعد الصرف وأحكامه ، ليتمكن من رد الكلمة إلى أصلها المجرد ، توصلاً إلى الاهتداء إلى مـكـانـهـا مــن القاموس، على أن الاشتقاق وما

يلحق أبنية الكلم من عوارض الإدغام والإدغام الإعلال ، وغير ذلك لمن أشد الأمور تعقيداً في اللغة العربية) (1).
هـذه "الـكـلـمـة" الـتـي قدمـنـاها تصلح نموذجاً لدعاوى كثيرة ، تصدر عن أناس متعددي المشارب ، مختلفي النوايا ، لـكـن يجـمـعـهـم هــدف واحد ، هو تزهيد الناس بالعربية، وتـنـفـيرهم منها ، ويتذرعون إلى ذلك بما يشبه الحجج ، ويلبس ثوب الدليل ، ولكن إذا تفحـصـتـه لم تجـده مـن الـحـجـج ومـن الأدلة في شيء. وسوف نناقش الدعوى المتقدمة ، ليتبين لنا ما تنطوي عليه :هـل هـو من الـمسلمات الثابتة ، أم أنه ذريعة إلى أمر آخر هو الصد عن تعلم هذه اللغة ببث الكراهية لها في النفوس ، والتنفير عنها بكل وسيلة؟!
فيما يتصل بالقضية الأولى ، هل صحـيـح الادعــاء أن البحث في المعاجم العربية صعب إلى هذه الدرجة - حتى على الكثير ممن نالوا قسطا وافرا من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه ؟ - وهل هناك "معاناة حقيقية" يعاني منها المدرسون والطلبة في هذا المجال ؟
إن الأمر انتهى بطرق ترتيب المعاجم إلى طريقتين رئيسيتين :
أولاهما : طريقة الصحاح ، والقاموس المحيط ، ولـسـان الـعـرب ، وهى الطريقة المعروفة بطريقة "الباب والفصل" والتي رتبت فيها الكلمات في باب الحـرف الأخير من جذورها ، ثم رتبت ترتيبا هجائيا داخل الباب بعد ذلك ، فـ(بدأ) و(نشأ) توجدان في باب الهمزة ، الأولى في فصل الباء ، والثانية في فصل النون.
الثانية : الطريقة الهجائية المألوفة الآن في كافة معاجم اللـغــات الأخـرى ، وهـى أيضاً مـعـــروفة في بعض المعاجم العربية غير الحديثة: كأساس البلاغة، والمصباح المنير، وهى: وضـع الـكـلـمة في باب الحرف الأول من جذورها ، مع مراعاة الترتيب الهجائي أيضاً في الحرف الثاني والـثـالـث وهـكـذا.
فالكلمتان السابقتان (بدأ) و (نشأ) توجد الأولى في باب الباء ، والثانية في باب النون.
ومع هذا فقد صدرت طبعات للقـامـوس وللسان ، رتبت المواد فيها هذا الترتيب الأخير ، وهناك أخذ ورد في فائدة ذلك ، ولعل تـرتـيـبـهـا بهذه الصورة جاء خروجاً من كثير من التقولات التي تقال عن صعوبة الطريقة السابقة.
وهذه الصعوبة المزعومة في ترتيب المعاجم العربية لا تعدو ما يماثلها من الصعوبات التي يواجهها الباحث في معاجم اللغات الأخرى.
ولدى التجربة ظهر أن طريقة البحث في هذه المعاجم المتهجم عليها بالحق والباطل سهلة حتى على من لم "ينل قسطا وافرا من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه" ! ولو صرف أي طالب متوسط ساعة من وقته (بجد وحرص) لتعـلـــم أساس طريقة البحث والتدرب عليها لكان ذلك كافيا. (وهذا الأمر لا علاقة له بما هو كائن الآن من وجود كثير من الخريجين ، ممن لا

يرهقون أنفسهم للتفرغ لهذا الأمر ولو ساعة من زمن ، ثم يستغربون - ويستغرب الناس منهم - حيرتهم أمام النظر في معجم من مـعـاجــم العربية ، وبدل إلقاء اللوم على كسلهم وتفريطهم يلقونه على هذه المعاجم الصعبة المرتقى،المعقدة التركيب ! فهذه النتيجة المؤسفة مركبة من عدة مقدمات أفضت إليها ، وتحتاج إلى معالجة على حدة).

إن كان شأن المعاجم العربية ليس بالتعقيد الذي انتهت الكـلـمـة السابقة إليه ؛ وأن كثيرا مما يشاع حولها هو تضخم وتهويل ؛ إذاً ، فما الأثر الذي تبقيه هذه الكلمة ومثيلاتها في نفوس أكثر قرائها ؟ إنه أثر غير محمود النتيجة ، فهو تزهيد وتثـبـيـط ، تـزهـيـد لأبناء العربية بلغتهم ؛ وتثبيط للهمم حتى تقعد عن التعرض لتعلم ما ينفع في بناء الشخصـيـة ، والارتفاع بها. والأفكار أوعية مفتوحة إذا أنفت أن تمتلئ بشيء ينبذه المجتمع ، وتُنْشَر سمـوم الـدعـايـة ضده ؛ فلا بد من أن تفتش عن بديل تملأ به الفراغ ، وتتطلع إلى محلٍ تُحِلّه المنطقة الـمـهـيـأة الـمـفرّغة ، وليس المحتل هنا غير اللهجات العاميّة ، أو اللغات الأجنبية وما يلحقها من تمكن وغلبة لما تمثله من عقائد ، وما تجلبه من أفكار.

أتاني هواها قبل أن أعـرف الهوى فصادفَ قلباً خاليـــاً ، فَتمَكَّنا !

والآن فلننظر في بناء هذه الكلمة ذاته لنرى نصيبها من الصواب أو الحقيقة.

1- (ليعلم كل من له إلمام بأسرار العربية) عـبــارة يبدو ظاهرها لا غبار عليه ، ولكن أعد قراءتها كلمة كلمة لتعلم أن منطوقها يخالف ما يريد صاحبها ، فهو يريد أن يثبت بدهية وهي أن كل دارس للعربية يـعـلــم مـا سـيشـير إليه ، ولكن الأسرار لا تلم بها إلماماً ، بل تُـسْـتـبْـطَنُ استبطاناً ، وتعالج علاجاً مضنياً حتى تكتشف ، وعلى هذا فإن العارفين بأسرار العربية ليسوا مجمعين على ما سينتهي إليه صـاحب الـدعــوى ، وهـذا نقـض للـتـعـمـيـم الفضفاض : يعلم كل من له إلمام...

2-(... أن الأسلوب المصطلح عليه في ترتيب معاجمها...) وهذا أيضاً تعميم يضيف إلى برودته جهلاً غليظاً ، فالمعاجم العربية ليس لها أسلوب واحد في ترتيبها ، بل لها طرق متعددة ، وأساليب متنوعة. فأي أسلوب منها يعني ؟!

3-(... لا يناسب حتى ولا الكثيرين ممن نالوا قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه...).

لو أنه قال مثلاً : لا يناسب من لم ينل قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه ؛ لكان في الجملة الروح ، ولكن جنوحه إلى تضخيم ما لا يحتاج إلى تضخيم أبى عليه إلا أن يطلقها هكذا مرة واحدة أن هذه المعاجم ليس فيها خير ألبته ، لا للمبتدئين فقط بل للعلماء أيضاً وهي ليس إلا ركاماً يكد الأذهان ويضيع الأعمار !(وقِفْ عند هذه الكلمات قسطاً - وافرا - الإحاطة -فهي كافية أن تلقى في نفسك الرعب ، وتبعث الرهبة من مكامنها)!

4 - ثم اقرأ معي تتمة الكلمة على مهل ، ألا توحي إليك - وقد فرغت منها - بوصف مهمة اكتشاف القارة القطبية ، كُلِفَ بها شخص غير مُدَرَّب ، ولا فائدة من تدريبه ، وليس هذا فحسب ، بل هو - أيضاً - مجرد من أسباب مقاومة الصقيع ، على علة مستكنة في جسمه؟!

كأنه يقول لمن يهم بتعلم شيء من هذه اللغة : مالك ولهذا العناء المعنّى ، ولماذا تضيع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة له ، مالك ولمعاجم العربية ونحوها وصرفها ، لماذا تفر من السهل الميسر ، إلى الحرج والتعقيد ؟!

وهكذا تبنى جدران سميكة من الوهم والتضليل بين هذه اللغة وبين أبنائها.

وسرّح النظر في واقعنا الثقافي مشرقاً ومغرباً ، وردده فيه صعوداً ونزولاً ترى أن مثل هذا التقبيح القولي لكل ما يتعلق بلغتنا العربية ، والحط من شأنها قد انضاف إليه - واأسفاه - تقبيح عملي مجسم ومصور ، والحال ناطقة به ى وشاهدة عليه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال. ووالله ، إن السكوت على هجران هذه اللغة ، وعدم الغضب لها حين تُرمى بالنقائص ، وتُتَقَصَّدُ بالحيف ليعادل انتهاك الحرمات ، وضياع المقدسات ، إن لم يكن أكبر.

الهوامش:

1- من مقدمة قاموس إلياس العصري (عربي - إنكليزي).

رؤية إسلامية

في المجيز والمجاز(1)

د. مصطفى السيد

يتحتم علينا - بسبب من انتمائنا الإسلامي ، وهويتنا الإيمانية - أن نستحضر قيم الإسلام ومقوماته في قراءة أي عمل أدبي ، بل في شؤون الحياة كلها وشجونها جميعها (لأن الإسلام يتغلغل في حياة أفراده فإن مسألة التزامه في الأدب يجب أن تكون محل تقدير) كما يقول أحد النقاد (2).

وإبراز هذه الهوية ليس بدعاً ، أو على الأقل ينبغي ألا يكون كذلك في دوائر أنصار الأدب الحديث ومحاربيه ، فهذا شيخ التحديث ، وملهم الشعر العربي الحديث رؤيته وشكله وتشكيله - ت. س. إليوت - يعلن صراحة أنه (أنكلو كاثوليكي في الدين وكلاسيكي في الأدب ، وملكي في السياسة) (3)

ولو تجرأ مثقف ورفع عقيدته بمثل هذه المقولة عن معتقداته الإسلامية والأدبية والسياسية أمام دعاة الأدب التقدمي لانهالت عليه النقود المتهكمة من كل وجه.

وهذا يوسف الخال النصراني ديانةً ، السوري بلداً ، اللبناني مهجراً ، والذي يعد قنطرة مـهـمــة بين إليوت ، وحوارييه في العالم العربي ، كان يركز على بعث المفرد الـتـوراتـي والإنجـيـلي ، واستثمار نصوصهما في التعبير الرمزي. والدكتور عبد الواحد لؤلؤة يخبرنا أن (الكتاب المقدس كان العمود الفقري للآداب الأوربية في شتى عصورها) (4).

وحضور الإسـلام حَـكَـمَـاً لا يـعـنـي اسـتـبـعـاد الفـائـدة من إبداعات الآخرين وتجاربهم الوجدانية الناضجة في كل مجال ، فالشيطان بما يتمتع بـه مـن مـكـانـة سيئة ، وحضور بغيض قد يقول الصدق ويتلفظ بالحق كما قال الرسول صلى الله عليه وسـلــم لأبى هريرة عن الشيطان: " صدقك وهو كذوب " (5).

وعمالقة الأدب الحديث الذين يتوجس أكثرهم خيفة من الإسلام ، هل وجدوا في الأنظمة "التقدمية" الأمان على أنفسهم والضمان لفكرهم ؟ أم كانت النظرة الغربية المحضة للإسلام ، والتجربة الإسلامية المشوهة في كثير من الأمكنة ؛ كانتا وراء توجسهم وبـالـتـالـي وراء اختيارهم لنماذج لا تحسب على الإسلام إلا اعتسافاً وقسراً كما فعل صلاح عبد الصبور ، عندما اختار الحلاج ليعرض من خلاله مأساة الثقافة والمثقفين وحرية الكلمة ، وكيف دفع الحسين بن منصور الحلاج رأسه ثمنا لفكره (6) وللكلمة التي آمن بها مُدينا (عبد الصبور) العلماء والقضاة الذين ساهموا ويساهمون في اغتيال (نبتة الحرية وشجرة العبقرية الـمتمثلة بالحلاج وبالحلاليج المعاصرين.

والمطّلع العادي غير المتخصص على العصر العباسي يجد أن هموم الثقافة وشجون الـواقــع والمستقبل وهمومه والعلاقة الأبية مع السلطة كان يمثلها الإمام أحمد- رحمه الله - الذي لـم يـحــل سـجـنــه وجلده بينه وبين كلمة الحق ، بل إن الموت نفسه كان احتمالا قائما وقريبا.

إن تلك الوقفة العالية في سماء التاريخ التي وقفها الإمام أحمد - لا قتل الحلاج -هي التي كشفت للدولة العباسية عزلتها على الصعيد العلمي والشعبي.

فلقد روى الذهـبــي أن عالـمـا ممن كان له في العطاء سهم ، خيرته الدولة بين أن يناقض الإمام أحمد ويحتفظ بعطائه أو يستمر في تأييده لموقف الإمام أحمد فيخسر عطاءه ، فاختار الثانية ، فعلمت العامة التي لـم تـكـد تفهم الموضوع الذي كان محل خلاف ، فعاد الرجل إلى بيته الذي يضم بين جدرانه ثلاثين نفسا يعولهم هذا العالم فاستقبلوه بالتلوم فرد عليهم : إن الله لن يضيعنا ، فلم تغب الـشـمـس إلا وصـاحـب حـانـوت يقرع باب هذا العالم ثم يبادره قائلاً : ثبّتك الله كما ثبتَّ الإسلام !! كم كان يعطيك هـؤلاء ؟ يقـصـد عـطـاءه مـن الدولة ، فقال : كذا ، فقال صاحبة الحانوت : خذ هذا المبلغ المساوي له ولك مثله كل شهر.

هل كان عبد الصبور مهتما بالحلاج لما يمثله من رمز ثقافي رافض ؛ إذا كان كذلك فالإمام أحمد أولى بذلك ، ولكن رُفِضَ رَفْضُ الإمام أحمد لأنه كان ملتزما بحدود النص الإسلامي في أدب العلاقة مع السلطة التي هي رمز الأمة ، فقد كانت سياط المعتصم تلهب ظهره وهو يقول له يا أمير المؤمنين!!!
لماذا ؟
لأن الخلاف مع السلطة لا يعني إسقاطها ، ولأن الإمام أحمد كان على وعى تام بالنتائج الخطيرة لـلـحـركات التي أرادت إسقاط السلطة ابتداء بحركات الخوارج والشيعة وانتهاء بـحـركـــة الفـقـهاء-مع ابن الأشعث - كان مزيداً من الضحايا وتعميقاً للخلافات وإجهاضاً للطاقات العامة ومنبعاً لأحزاب جديدة.
أم لعل سر اهتمام صلاح بالحلاج لصوفيته التي ينظر إليها كحركة احتجاج داخلية تغطي أسئلتها وتـسـاؤلاتـهـا بـالـرمـز ، ولربما كان الترميز المعاصر والغموض والإبهام في الشعر والقصة موصولاً بالرمز الصوفي شـكـــلا ومـضمـونا ، ولعل ذلك يكشف سر الاهتمام بالشعر الصوفي من قبل المدرسة الحديثة في الأدب.
ولئن كان فوز نجيب محفوظ (ممثل الرمزية (7) فـي الجـنـاح الآخر للأدب) بجائزة نوبل موضوع هذا المقال فإني أقول ابتداءً. إن الرجل بكل المقاييس الفنية قد بات شيخ الرواية العربية كماً وكيفاً ، وهذه حقيقة أكبر من أن يماري فيها جَدِلٌ أو متعنِّت.
فقد توصل إلى إبداع نماذجه الخاصة ، وهذا إنجاز ضخم فـي عـالـم الـقـصــة والمقصود بالـنـمـاذج بعض شخصيات رواياته (الذين هم في حقيقتهم مجرد أفراد حين نرجـع إلـى سيرهم ، ولكن البشرية حين تأملت ذاتها فيهم ، رفعتهم من مستوى الفردية إلى مستوى النمـــوذج) (8) ومثل ذلك من القرآن - فرعون - وقارون وأيوب عليه السلام. فالأول لأش اسم شخص بعينه ورمز ونموذج لكل طغيان سياسي ، والثاني رمز لكل طغيان مادي (9) ، والثالث نموذج للصبر والمصابرة.
ولـكــن نمـاذج محفـــوظ كانت محدودة مكاناً ومكانة وموقعاً سياسياً، أما المكان فهو حي
(الجمالية) الشعبي بالـقـاهــرة الذي ظل محفوظ مسكوناً بأجوائه نفسياً وتاريخياً معلناً أن (هذا الحي هو مصر) (10) وهو عندما ينتقل منه ينتقل جسداً وتبقى (الجمالية) مضموناً أو ينتقل إلى معادل له (كزقاق المدق) الذي هو أيضاً رمز لمصر كلها)(11).
ولنا أن نتساءل كيف تختزل مدينة كالقاهرة،أو كيف تخـتـصـر أمـة كـمـصـر وتـتـوحــد خصائصها بحي (الجمالية) أو (زقاق المدق) ؟.
مـصـــر بتراثها وثرائها الفكري وعطائها المتدفق في كل العصور والدهور تضؤل لتتمثل في حي شـعـبي يـقــول محفوظ عن خصائص الطبقات الشعبية

فيه (يلعب الجنس في حياتها أدوارا رهيبة في سـقــوط الكثيرين وفي سلوكهم ، وحيث أكثر الناس يتمسكون بالشعارات الدينية ، وحيث كثير مـن الانـتـهـازيـيـن الـذيـن يـسـتـطـيـعـون ببساطة اللعب بالعقول الغبية)(12).
لِمَ هــذا الجمع بين المتمسكين بالشعارات الدينية وبين الجنس ذي الأدوار الـرهـيـبـة فـي السقوط ؟
لم الزج باسم الدين في هذا التشكيل المتنافر ؟
أما المكانة فهل هذه النماذج المنحرفة هي المثل الاجتماعي الوحيد الموجود في هذا الحي؟ وهل تقلص الخير إلى الحد الذي يخيل فيه القارئ (نجيب) تفرد النموذج الساقط وانفراده واستئثاره بالساحة ؟
وهل مـسـؤولـيـة الكاتب فقط تشريح النموذج وتقبيحه حتى تتحدد مواقف القراء من هذه الحشرات البشرية؟
إن ذلك إنجاز مهم ولا شك ، ولكنه ليس كافياً ، فالقرآن ذكر خيانة امرأتي نوح ولوط ثم أعقبهما مباشـرة بنموذج مضيء - امرأة فرعون - ولعله سلك هذا المسلك (والله أعلم) حتى لا تفتقد المرأة صـورتـهـا الطيبة بسبب هاتين المرأتين المترديتين بما أغضب الله ورسوليه ، وربما كان في استقدام نموذج امرأة فرعون من بيئة تجاوزت في فسادها حي (الجمالية) -كانت امرأة فرعون تـحــت رجل يقول (أنا ربكم الأعلى) - ربما كان في ذلك إشارة واضحة إلى أن الزهور قد تتفتح في أسوأ الأمكنة مناخاً وبيئةً.
ولما كان فرعون يتهدد ويتوعد ويطلب ألا يحال بينه وبين موسى ((ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى))
[غافر:26]، وكان الجمهور غارقاً فـي التصفيق رغبة أو رهبة لهذا البهلوان ، كان القرآن يسمعنا صوت احتجاج متعقل يجـبـه هذا الطوفان بقوة هادئة أو بهدوء قوي ! وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكـتـم إيمـانــه: ((وقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ))[غافر: 28-34].
ألم يكن في (حي الجمالية) رجل رشيد ؛ أم أن الكاتب لم يشأ أن يوجد هذا الرجل ؟
في رواية (السكرية) يقول محفوظ على لسان سوسن حمّاد :
(المقالة صريحة ومباشرة ، ولذلك فـهـي خـطـيـرة ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، إنها فن ماكر)(13).
يقول الأستاذ إبراهيم عامر في عدد الهلال الـخــاص عـن نجيب محفوظ 1970 معلقاً على ذلك :
(هذه العبارة تبدو لي وكأنها الدستور الذي التزم به نجيب محفوظ منذ بدأ يكتب).

هل تخفّى (نجيب) من خلال قصصه بأبطاله أو من وراء أبـطـالـه ليعرض شكوكه أو أزمته الإيمانية، لا أزمة هؤلاء الأبطال ؟
إن أبطال القص ليسوا إلا وجوها مختلفة للكاتب ، وبينهم وبـيـنـه مـشـاعـر مـتـبـادلــة، وتطورهم أو انحدارهم في عالم الفن القصصي ذو صلة قوية بوجودهم في عالم الواقع أحيانا كـثـيـرة ؛ كان نجيب محفوظ يكتب في (المجلة الجديدة)1934-1938 التي كان يصدرها سلامة موسى مقالة عن (الله) وصفت بأنها جريئة عدد يناير 1936 ثم يقول في عدد مارس 1936 بعد عرضه (لفكرة الله في الفلسفة) :
(والآن فلنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الذي تتركه في النفس جميع هذه الآراء من الأثر ؟ إن البراهـيـن العقـلـية تمهيد حسن ، ولفت قيّم ، ولكنها لا تبلغ بالإنسان درجة الاعتقاد الحقيقي... وإني أجد نفسي بعد الاطلاع عليها حيث كانت من القلق والاضطراب) (14).
ويقول أحد كبار النقاد :
(تحضرني لنجيب محـفـوظ هـنــا مجمـوعـتـه القـصـصـية (دنيا الله) وفيها شجب أسلوبه التقليدي في القص ، وتخطى حدود المظهر من الوجود إلـى مـطـلـق الوجود ، ولقد اصطنع العبث أو اللامعقول أحيانا ولجأ إلى الرمز في أثناء مناقشته لقـضـيـتـي الـحـيـاة والإيمان ، ونلحظ بسهولة أنه وهو يطلب منا أن نتجاهل الموت لعشوائيته (15) ينادي بعفوية العقيدة ، ولكنه يلح على الإحساس بالغربة والضياع.

أتراه فقد الإيمان ؟

لماذا يبدو وكأنه يرفض السعادة ويأبى أن يرسم طريق النجاة ؟.
(نـسـتطيع أن نقول إن نجيب محفوظ الذي سلّم بمقدرات الدين في أكثر أعـمـالـه ، وقـف إزاءهــا هــذه المجموعة - أي دنيا الله - وقفة المواجه المتحدي ، أو وقفة المتسائل المشدوه ، ولنقل وقفة المحيَّر أمام أخطر المشكلات) (16).
أما محدوديـة نماذج محفوظ في الموقع السياسي فأضرب لذلك مثلاً بقصته (ميرامار) والتي جعل فيها (زهــرة) الـبـطـلـة رمزاً للثورة المصرية (23يوليو) كما يرى كثير من دارسي هذه القصة. وبقية الأبطال رمز لـمـواقــف القوى القائمة في الساحة من الثورة ، (عامر وجدي) صحفي قديم شارك في كفاح الشـعـب ، (حسني علام الماجن، منصور باهي) التقدمي فكراً الخ... هل هؤلاء فعلاً وغيرهم الـذيـن فـي القـصــة هم وحدهم الذين كانت لهم آراء ورؤية وموقف من ثورة يوليو ؟
ألم تكن قوى أخرى وقفت مستندة إلى عقيدتها الإسلامـيــة تحــاور ثـم تناوئ هذه الثورة (17).

وقصة (السراب) التي ولد فيها البطل من رحم الدراسات النفسية الغربية - لا من البيئة المصرية - وذلك ليكون للعرب نموذج كأوديب وهاملت والاخوة كارامــازوف ، ولـو كانت الحقـائـق الاجتماعية العربية لا تسعف الكاتب ، فهل يعقل أن يظل الطفل (كامل رؤيــة لاظ) طفلاً في تعلقه بأمه يكبر فيه كل شيء (إلا هو) (يستحم معها فتضعه في الطست عاريا وتجـلـس أمـامه متجردة ، وكان لا يطيق فراقها ، وكانت هي كذلك لا تطيقه (أي الفراق) كانت قد حشدت كل أمومتها من أجله بعد أن استرد زوجها الطفلين الآخرين وفضلاً عن هذا كان بين الطفل وأمه تشابه كبير ، فقد كان وجهه نسخة من وجهها ، وقد اعتاد أن ينام في سرير أمه حتى بلغ السادسة والعشرين من العمر ، وحين أنبه جَدُّه على ذلك ابتاع سريراً آخر ولكنه وضعه في حجرة أمه) (18).
والكلمة الأخيرة في (المجيز) أي مانح الجائزة ، فمن المعلوم أن قمة أعمال محفوظ الأدبية كانت قد تحددت وظهرت قيمتها وتم نضجها قبل منح الجائزة بسنوات وما أضيف أخيراً لم يعط الكاتب وقصصه مزايا تنتزع الجائزة.
ولكن المزايا جــاءت مـن خـارج الـنـص الأدبي ومن خلف سور القص ، من عالم السياسة عندما أضفى محفوظ على أدبه (طـابـع الإنـسـانـيـة) وذلك (بضرورة العلاقة مع إسرائيل، والصلح مع اليهود والتفاهم مع الصهيونية لعيش مشترك في فلسطين ومصر ولبنان).
في كلمة مختصرة للناقد جهاد فاضل في مجلة الحوادث 1987/11/13 بعنوان سقوط جائزة أم سقوط حضارة ؛ أنقل بعض ما جاء في هذه الكلمة الرائعة وإن كانت جديرة كلها أن تنقل :
(إذا كان القانون يقول : الأصل براءة كل إنسان حتى يثبت العكس فالأصل في جائزة نوبل أنها متهمة حتى يثبت العكس ، ذلك أن الواقع يثبت أن وراء منح هذه الجائزة الأدبية الهامة ، مقاصد غير بريئة فهي لا تعطى كل سنة ومنذ سنوات بعيدة إلا لكاتب يهودي ، أو لكاتب منشق أو لمولى من موالي الغرب ، ولو كان كاتبا من الدرجة الثالثة ولو كان في العالم عشرات الكبار الأصلاء والمستحقين.
في أدق تعريف لجائزة نوبل ، يمكن القول أنها جائزة النظام العام الغربي الأدبي والفكري والسياسي ، وليست شيئاً آخر ، جائزة النظام العام للغرب لا جائزة الأدب والقيم الأدبية
والإنسانية الرفيعة ، وتاريخها ناطق أنها لا تمنح إلا من زاوية خدمة أهداف الغرب العليا ، أداة من أدواته تماماً كالبندقية والمدفع والرادار وما إلى ذلك.
ويفضل (في المنهج) المنشق على أيدلوجية الشرق والمبهور بالغرب وثقافته وحضارته).
(وعندما يدعى هذا المنشق في الأسباب الموجبة لمنحه الجائزة ثائراً عربيا أو إسلامياً في حين أنه ثائر على العروبة والإسلام).

(بدأت جائزة نوبل عندما أراد عالم سويدي اسمه نوبل -التكفير عن ذنب ألحقه بالإنسانية هو اختراعه للديناميت ولكن اللجنة القائمة على الجائزة كثيراً ما تعطيها للتفجير لا للتكفير ، وبذلك تراعي الاختراع الأصلي أكثر مما تراعي رغبة التوبة عند مؤسسها.

***

[اجعل بينك وبين صنم الإفرنج بونا شاسعاً ..
فعهده وميثاقه لا يساويان حبة شعير ..
خذ النظرة من عين الفاروق ..
وضع القدم الجريء في العالم الجديد ..]

محمد إقبال

الهوامش :

1- بمناسبة حصول القاص نجيب محفوظ على جائزة نوبل.
2- دراسات في النقد الأدبي ، د.أحمد كمال زكي ، دار الأندلس ص:191.
3- قلعة أكسل ، إدمون ولسون ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص 105.
4- البحث عن المعنى دراسات نقدية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص : 86.
5- رواه البخاري ، فتح الباري ، 6/336 ? حديث رقم 3275.
6- انظر عن الحلاج الفتاوى لابن تيميه (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) 11/239.
7- انظر الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد.
8- مجلة فصول ، مجلد 2 ، العدد الأول أكتوبر 1981 العدد الخاص عن صلاح عبد الصبور ، ص 37 ،من مقال د. عز الدين إسماعيل ، عاشق الحكمة حكيم العشق
9- قصة قارون في مجلة البيان ، عدد 14 ،ص 15.
10- في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ ، ص 105، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغي.
11- الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد ص 14.
12- في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ ، ص 14 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغي.
13- المصدر السابق ، ص 96 في 11 و9.
14- المصدر السابق ، ص 94 في 12 و9.

15- (عشوائية) تعكس رؤية الشاعر الجاهلي في الموت ، انظر معلقة زهير: رأيت المنايا خبط عشواء من تصب. ومعتقد المسلم أن الموت من- مقِّدر حكيم.
16- دراسات في النقد الأدبي ، د. أحمد كمال زكي ، دار الأندلس ، ص 192.
17- الرمزية في أدب نجيب محفوظ /2225وما بعدها.
18- التفسير النفسي للأدب ، د.عز الدين إسماعيل ، دار المعارف1963 ، ص 260-261.

معالم من تاريخ الخلفاء الراشدين
-2-

محمد بن صامل السلمي

3- سيادة العدل والمساواة بمفهومها الإسلامي الصحيح :

وذلك أن التفاضل بين البشر قوامه الميزان الذي قرره الله في كتابه. قال تعالى :((إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) [الحجرات/13]،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم »لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى«(1).

والأدلة الواقعية والتاريخية على سيادة هذا المبدأ في عصر الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصى ، فهذا الخليفة الأول أبي بكر الصديق يطلب في أول خطبة له من الرعية أن تقوّم ما ترى فيه من خطأً أو اعوجاج(2).

وهذا عمر بن الخطاب يتقاضى وهو خليفة مع أبي بن كعب الأنصاري عند قاض المدينة في عهده زيد بن ثابت ، فيأتي عمر وأبي ابن كعب إلى مجلس القضاء ، ويقول زيد لعمر: لو طلبتني يا أمير المؤمنين لأحضر عندك. فيرد عليه عمر : مقرراً قاعدة مهمة من قواعد التقاضي وهي قاعدة المساواة:في بيته يؤتى الحكم.

ثم يحاول زيد-من باب الإكرام للخليفة-أن يدني مجلس عمر ، فيأبى عمر إلا أن يجلس مع خصمه على قدم المساواة ويقول لزيد : هذا أول الجور منك. وبعد أن يدلى كل من الخصمين بحجته ، يحكم زيد باليمين على عمر ثم يطلب من أبى بن كعب أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين لكن عمر أصر على تنفيذ ذلك ، فيحلف كما حكم القاضي ، وبعد أن استحق الأرض المتنازع عليها قضاء وهبها عمر لأبي بن كعب(3).

ومرة جاء رجل من المسلمين فقال لعمر : اتق الله ، فقال أحد الحاضرين : أتقول ذلك لأمير المؤمنين ، فرد عليه عمر بقوله : دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم(4).

ومن مظاهر المساواة والعدل توزيع الفيء وأخماس الغنائم على كافة المسلمين فإن عمر رضي الله عنه لما دون ديوان العطاء جعل لكل مسلم حق في ذلك العطاء حتى المواليد ، فبمجرد ولادة طفل لأحد المسلمين يسجل أسمه في الديوان ويفرض له عطاؤه وكان عمر يقول : لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه دون أن يسعى لطلبه (5). ويقول أيضاً : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، ووالله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله (6).

وقد واسى رضي الله عنه الناس بنفسه في عام الرمادة فامتنع عن أكل اللحم والسمن حتى توفر ذلك لعامة الناس ومضت أزمة المجاعة وجاءهم الفرج من الله.

يقول أنس رضي الله عنه : غلا الطعام بالمدينة فجعل عمر. رضى الله عنه يأكل الشعير وجعل بطنه يصوّت فضرب بيده على بطنه وقال : والله مما هو إلا ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين(7).

وعن طاووس قال: جدب على عهد عمر فما أكل سمناً ولاسمينا حتى أخصب الناس (8).

4 - سيادة مبدأ الشورى قاعدة للتعامل بين الحاكم والمحكوم :

مبدأ الشورى من المبادئ الإسلامية الهامة التي توفر الأمن والطمأنينة للأفراد والاستقرار السياسي للدولة ، ويؤدي إلى إشاعة ء المحبة وبث روح التعاون والتناصح بين الحاكم والرعية ، وهو ضروري حتى لا ينفرد الحاكم بالأمر والرأي الذي قد لا يكون صواباً فإن رأي الجماعة خير مــن رأي الواحد لأنه يأتي بعد نظر ودراسة وتفكر في الأمر وعواقبه. ومن ثم تـضـمــن الأمـــــة أكبر قدر من إصابة الحق، قال ابن عطية: الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب (9).

وقد قال تعالى مثنياً على الـمـؤمـنـيـن ومعدداً بعض صفاتهم : ((والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) [الشورى/38].

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: كـــــان الأنصار قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عـمـلــوا عـلـيــه فمدحهم الله به. ونقل عن الحسن البصري أنه قال : انهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلمتهم(10).

وقال تعالى مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ)) [آل عمران:159].

أخرج ابن أبى حاتم بسند حسن -كما قال الحافظ فـي الفتح (11) عن الحسن قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده.
فالشورى مشاركة في المسئولية وضمانة من الانحراف ولـهــذا بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بهاتين الآيتين باباً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (12).
وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري رحمه الله لأهمية الشورى وكون العمل بها اعتصام بالكتاب والسنة وبعد عن الانحراف والبدعة، مـمــــا أحــوج دعاة الإسلام اليوم إلى تدبره وتفهمه لتسلم دعوتهم من القرارات العشوائية ، والاتجاهــات الفردية. وقد وردت الآثار عن الأئمة في مدح الشورى وبيان فضائلها. قال الحسن البصري : ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم ، وفي لفظ : إلا عــــزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع (13).
وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قط !! إذا حزبني أمر شاورت قومي فعملت الذي يرون فإن أصبت فهم المصيبون وان أخطأت فهم المخطئون (14).
وقال البخاري: كان الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم "يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره" (15).
وقال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، ومسار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم إلا هدوا (16).
ولقد كانت سيرة رسول صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين من بعده تطبيق واقعي لمبدأ الشورى ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأتيه الوحي من الله يسدده يصفه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله. ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (17).
وقد شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمور العامة كما في القتال يوم بدر، وفي أسرى بدر وفى أحد والخندق والحديبية بل حتى في الأمور الخاصة ، كما في قصة حادثة الإفك.
أما الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم جميعاً فقد وقعت منهم في خلافتهم أمور كثيرة توضح التزامهم بهذا المنهج الشوري منها : تشاورهم في اختيار الخليفة ، ومنها استشارة أبى بكر رض الله عنه في قتال أهل الردة ، وقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر رض الله عنه إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به قض بينهم وإن علمه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم واستشارهم. وإن عمر كان يفعل ذلك(18). وقد كان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً(19).

وقد شاور عمر الصحابة في الصحابة في إملاص المرأة(20) ، وأيضاً في قتال الفرس(21) ، وفى دخول الشام لما وقع الطاعون بها(22).
وقد ترك عمر الخلافة من بعده شورى.
وشاور عثمان رضى الله عنه الصحابة أول خلافته فيما يفعل بعبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان ظناً منه أن له في قتل أبيه مدخلاً (23).. وشاور الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد ، قال علي بن أي طالب : "ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا "(24)...
فهذه الوقائع من تاريخ الخلفاء الراشدين توضح بما لا مزيد عليه التزامهم بمنهج الشورى في كافة الأعمال المحتاجة إلى ذلك مثل بعث الجيوش واختيار القادة وحكام الأقاليم والولايات والاجتهاد في الأحكام الشرعية التي لا نص فيها بخصوصها.
وقد كانت الشورى طريقاً ومنهجاً في اختيار الخلفاء الأربعة للإمامة العظمى، وإن اختلفت صور المشاورة ، وقد قال عمر رض الله عنه: من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه(25). مما يدل على التزام الشورى في البيعة والخلافة.

5- قيام الجهاد والعلاقات الدولية في عهدهم على مقتضى الشرعية :

من المعلوم أن الدولة الإسلامية دولة متميزة في منهجها وتصورها وسياستها لأنها تأخذ أحكامها ونظمها من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ولذا فإن علاقتها مع غير المسلمين محكومة بتلك النصوص والأحكام.
ولقد أقام الخلفاء الراشدون علاقاتهم مع غير المسلمين على موجب تلك الأحكام. فالأرض إما.
1- دار إسلام : وتطبق فيها أحكام الشريعة على كافة المقيمين فيها سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، لأن غير المسلم لابد أن يدفع الجزية للأحكام الإسلامية التي شرعها الله في حق أهل الذمة ، وللشروط التي وضعها الخلفاء ، وهى مفصلة في كتب الفقه ومنها أن يلتزموا بآداب المسلمين الظاهرة ولا يرفعوا صليبا ولا يشربوا خمرا ولا يؤذوا مسلما ولا يبنوا كنيسة ولا يدعوا أحدا إلى دينهم ولا يرفعوا دورهم فوق دور المسلمين ، ولا يحتفلوا بأعيادهم ظاهراً ولا ينشروا شيئاً من كتبهم بين المسلمين (26).
ب - أو دار كفر ، وتنقسم هذه الدار إلى قسمين : دار صلح وعهد ، ودار حرب.
فأهل الصلح والعهد يوفى لهم بعهدهم إذا حصل منهم الوفاء ، والعهد والصلح لا يكون مستمراً إلى الأبد بل لابد من توقيته بأجل ، ومن العلماء من جعل أطول مدة للعهد والصلح عشر سنين أخذاً من أطول مدة صالح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين في صلح الحديبية (27).

أما أهل الحرب فلا علاقة بينهم وبين المسلمين إلا السيف والقتال والأخذ بكل طريق ومرصد -إذا أقيمت عليهم الحجة وكان بالمسلمين قوة واستطاعة- لإرغامهم على الخضوع لله ولدينه وليكون الدين كله لله ، قال تعالى :((فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدتُّمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [التوبة /5].
وقد طبق الخلفاء الراشدون هذه الأحكام بأعلى وأتم ما يكون التطبيق وكسرت في عهدهم أكبر دولتين في العالم في ذلك الزمن الدولة الفارسية والدولة الرومانية وأورث الله المسلمين أرضهم وأموالهم وأنفقت كنوزهما في سبيل الله وخضعت أراضيهم لحكم المسلمين وأصبحت دار إسلام ، ومن لم يسلم من أهل تلك المناطق طبقت عليه أحكام أهل الذمة وأخذت منه الجزية مقرونة بالذل والصغار كما أمر الله تعالى :((قَاتِلُوا الَذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ)) [التوبة:29]. كما ضربوا العشور على تجار غير المسلمين إذا مروا بأرض الإســلام أما المسلمون فلا يؤخذ منهم عشور ولا ضرائب وإنما تؤخذ منهم الزكاة المفروضة، ووضــع الخـلـفــاء الـراشــدون الخراج على الأرض حسب التفصيلات المقررة في مواطنها.
أما جزيرة العرب فقد أخرجوا منها اليهود والنـصــارى ولم يبق فيها إلا مسلماً تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم ووصـيـتــه في آخر حياته حيث قال :»لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً«(28) ، وقوله: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب (29).

6- الحماس في نشر الإسلام:

وظيفة الدولة الإسلامية هي نشر الدين حتى يـعـبـد الله وحــده، ولهذا عرف ابن خلدون الخلافة بقوله: هي نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا(30).
والـدولـــة تنفذ هذه الوظيفة بالجهاد وفتح البلدان وبالدعوة والتعليم لأوامر الدين ونواهيه وكافة أحكامه الشرعية. فحركة الجهاد والفتح العسكري لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا الـنـــاس في دينهم وهذا التلازم بين الفتح العسكري والتعليم أمر ضروري لابد منه لاستقرار الدعـــــوة والدولة ولابد من ملاحظة التوازن المطلوب في هذا الجانب، فبقدر التوسع في الأرض يـكـــون التوسع في الدعوة والتعليم حتى لا يختل ميزان التربية وتحدث الخلخلة في الـصــف الإســلامي وتتوســع الفجوة بين الفاتحين وسكان الأراضي المفـتـوحـــة مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية.

وقد بذل الخـلـفـاء الراشدون ما استطاعوا في سبيل حدوث هذا التوازن بين حركة التوسع الأفقي في فتح البلدان وبين التوسع الرأسي في تعليم الناس وتفقيههم في كـتـاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
ولكن رغم وجود البذل والحماس في ميدان التقليم والتربية على تعاليم هذا الـديــن إلا أن الملاحظ أن التوسع في الأرض كان سريعا وواسعا فقد فتحت العراق وما وراءها والشام ومصر في سنوات قليلة معدودة فلم يـكــن فـي مـقـــدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطـــق وتعليمها كما لم يكن الزمن كافيا لرسوخ التعاليم الإسلامية في نفــوس كـثـيـر منهم مما ساعد ـ مع غيره من العوامل ـ فيما بعد على وجود خلخـلـــة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامي مما سبب ظهور الفرق والأهواء المتشعبة.
وبـعـد فـهــذه جملــة من أهم المعالم البارزة في تاريخ الخلافة الراشدة أردنا بالتنبيه إليها توجيه أنظار دعاة الإسلام إلى الاستفادة من هذا التاريخ المشرق والسير على منوالهم فإنهم القوم بهم يقتدى وبهديهم وسنتهم يسلك ويتبع، والله الموفق والهادي.

الهوامش :

1- المستند للإمام أحمد بن حنبل 5/411.
2- ابن هشام ، السيرة النبوية 2/661، والطبري 3/210.
3- أخرج القصة ابن شبه في أخبار المدينة 2/755-756 بإســناد صحيح من طريقتين عن الشعبي.
4- ابن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،ص155.
5- ابن سعد : الطبقات الكبرى 3/299 ، ومسند أحمد حديث رقم 262 ، ط شاكر.
6- ابن سعد : الطبقات الكبرى 3/299.
7- ابن سعد : الطبقات الكبرى 3/1313، وابن شبه ، أخبار المدينة 2/742 ، ومنتخب كنز العمال 5/397.
8- وابن شبه ، أخبار المدينة 2/742.
9- المحرر الوجيز 2/280.
10- تفسير القرطبي 16/36.
11- فتح الباري 13/340.
12- انظر صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).
13- فتح الباري 13/340، وقال ابن حجر: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي حاتم بسند قوي.
14- تفسير القرطبي 16/37.
15- الصحيح ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).

16- أحكام القرآن 4/1868.
17- أشار إليه الترمذي في كتاب الجهاد من سننه بقول : ويروى عن أبي هريرة ، وقال الحافظ في الفتح 13/340 ، رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
19- ذكره الحافظ في الفتح 13/342.
20- صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(28).
21- صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب (25).
22- فتح الباري 13/342.
23- المصدر السابق.
24- ذكره الحافظ في فتح الباري 13/342، وقال رواه ابن سعد وغيره بسند حسن.
25- ذكره الحافظ في فتح الباري 13/342، وقال أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ، وسنده حسن.
26- رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب (31).
27- انظر ذلك مفصلاً في كتاب أحكام أهل الذمة للحافظ بن القيم.
28- حكى الطبري في كتاب اختلاف الفقهاء (ص 14) الإجماع على أن الصلح بين المسلمين والكفار لا يكون إلى الأبد.
29- رواه مسلم 3/1388 ، حديث رقم (1767).
30- طرف من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة.
31- المقدمة /191.

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

السلام في أفغانستان
خطط ومكائد

حينما حصل الانقلاب الشيوعي في أفغانستان على محمد داود لم يدر بخلد الشيوعيين السوفييت، ولا عملائهم الشيوعيين الأفغان أن حرباً - كالحرب التي حدثت في أفغانستان - ستحدث ، ولم يقدروا أن الشيوعية ، بما لها من جبروت ، سوف يهزمها شعب فقير وشبه منعزل.

ولذلك ، وبعد أن تأكد للسوفييت عقم محاولاتهم في إخضاع هذا الشعب ! وفي تسليط شرذمة من عملائهم لإذلاله وكسر شوكته ! لم يبق من الحكمة إلا أن يفكروا بطريق غير الطريق العسكري يحققون به ما عجزت الآلة العسكرية عنه ، وضمن هذا الإطار ينبغي أن تفهم التحركات الأخيرة للحكومة السوفييتية ، وتأتي الخطوة الأخيرة للسوفييت في سياق إطار عام من الانفراج الدولي بين القوى الكبرى ، ومن محاولات ترميم النظام الشيوعي

في داخـل الدول التي تتبناه ، بعد أن وصلت حالات جموده ونفور الناس منه إلى منتهاها. وكانت مبادرة غورباتشيف التي اقترحها في خطابه في الأمم المتحدة في 7/12/1988 تتضمن النقاط التالية :

وقف إطلاق النار ابتداءً من 1/1/1989م.

بقاء الأطراف المتحاربة في الأماكن التي تسيطر عليها.

وقف إمداد السلاح لأي من الأطراف منذ 1/1/1989م.

تأليف حكومة ذات قاعدة عريضة ، حسب قرار الأمم المتحدة.

إرسال قوة من الأمم المتحدة إلى كابل وبعض المراكز الاستراتيجية.

عقد مؤتمر بواسطة الأمم المتحدة في فترة قريبة حول حياد أفغانستان ونزع السلاح فيها.

تساهم روسيا في تضميد جراح الحرب مع الأمم المتحدة والدول الأخرى.

إنشاء قوة سلام دولية تكونها الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء أفغانستان.

ومن محاولة البحث عن الأسباب والأهداف وراء هذه المبادرة، فإن الدارس يخرج بالنتائج التالية:

1- حفظ ماء الوجه ، والتغطية على الهزيمة الفعلية، حيث إن السوفييت فشلوا في تحقيق ما يريدون ، والآن يعرضون خطة انسحاب تحت مظلة الأمم المتحدة.

2 -إن الـتـركيز على حياد أفغانستان ونزع السلاح منها ، يعني أن السوفييت لا يطمئنون إلى الشعب الأفغاني وبخاصة بعد معرفتهم بمدى جناياتهم عليه.

3- مـحـاولــة تـمـريـر العناصر الشيوعية خلال حكومة ذات قاعدة عريضة تضمهم وتضم غيرهم، بعد فشلهم في إقامة حكومة شيوعية خالصة، وفى هذا اعتراف بالفشل من جهة، ومحاولة التزام بأضعف الإيمان بعملائهم وعدم التخلي عنهم.

نقاط الالتقاء والافتراق في الموقف السوفييتي والأمريكي :

إن الموقف الأمريكي يتلخص بأن يجلو السوفييت عن أفغانستان وأن تسقط الحكومة الموالية للسوفييت ، وأن تقوم حكومة لا أثر للنفوذ الشيوعي فيها ، ولا بأس أن تكون موالية لهم.

والأمريكان والروس متفقون على عدم تشجيع قيام حكومة إسلامية ، فليس من مصلحتهم جميعاً أن يكون وجه هذه الدولة إسلامياً واضحاً: تشريعاً ، وتوجهاً ، وإذا كان بإمكان روسيا - باعتبارها قوة كبرى مجاورة لأفغانستان - أن تضغط من أجل ذلك ؛ فإن أمريكا لها وسائلها أيضاً حيث يمكنها أن تضغط إما بشكل مباشر عن طريق قطع إمدادات الأسلحة ، وإما بطريق غير مباشر عن طريق الطلب من إحدى وكيلاتها في المنطقة للضغط على المجاهدين.

موقف باكستان وإيران :

لابــد مــن الـحـديـث عن موقف كل من باكستان وإيران باعتبارهما جارتين لأفــغانستان، وموقفهما يفهم على ضوء الانفراج بين السوفييت والأمريكان، ثـم عـلـى ضــوء الـتـغـيرات الأخيرة في كل من الدولتين.
فباكستان بوتو غير باكستان ضياء الحق ، وبوتو - التي لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد اتفاقات وتطمينات ، وتطابق في بعض وجهات النظر بينها وبين أمريكا - لا تسـتـطـيع إلا أن تنفذ ما تتطابق فيه النظرتان ، وأهمه كبح المطالبة بحكم إسلامي صحيح في أفغانستان، وتلتقي في ذلك مع إيران ، حيث إن وحدة الأصل الذي ينحدر منه حكام طهران وحاكمة باكستان الآن يساعد على ذلك.
فإيران التي تقدم نفسها للمسلمين - دون حق - كناطق رسمي باسمهم في العالم تعلم جيداً أن قيام حكم إسلامي للمجاهدين في أفغانستان يخالف في أصوله وفروعه أسلوبها ؛ أمر لا يسرها ، بل هو من قبيل المضاربة والمنافسة التي. لا ترتضيها.

موقف المجاهدين :

إن مـوقــف المجاهدين في هذه الفترة يتمتع ببعض النقاط القوية ، ومن ذلك أن السوفييت تـجــاوزوا الحكم الشيوعي في أفغانستان واتصلوا بهم مباشرة ، وكذلك اعتراف السوفييت بسيطرة المجاهدين على مواقعهم ، وإظهارهم أنهم ماضون في استكمال،انسحابهم.
كـمـا إن إصــرارهم - أي المجاهدين - على مخاطبة روسيا بصوت واحد له دلالة طيبة، وقـد لـخـص مــوقـف المجاهدين قلب الدين حكمت يار في مؤتمر صحفي عقده في بيشاور بتاريخ 10 /12/ 1988م نقتطف منه بعض الفقرات :

وقف إطلاق النار المقترح :

إن قضية وقف إطلاق النار في منظورنا قضية غير معقولة وغير عملية ما لم يتم استئصال الأسباب التي كانت، وراء نشوب القتال في أفغانستان بادئ ذي بدء والتي لا تزال قائمة، وفي مقدمتها عدم انسحاب القوات الروسية التام من أفغانستان ، وعدم سقوط النظام الشيوعي الألعوبة ، الملطخة يداه بدماء مئات الألوف من الأبرياء من أبناء الشعب.، وإن أي اتفاق على غير هذا الأساس سيكون خداعاً للشعب.

نزع السلاح :

لن نرضى بتاتاً باقتراح نزع السلاح في أفغانستان تحت أي ظرف من الظروف ، حتى في المرحلة التي ستعقب النصر. إن دولة كأفغانستان مجاورة لدولة توسعية كروسيا لا يمكن لها المحافظة على استقلالها السياسي عن طريق الاحتفاظ بجيش محدود الحجم ، أو بشعب منزوع السلاح.

قوات حفظ السلام :

إننا نعتبر إرسال أي قوات أجنبية إلى أفغانستان تحت أي اسم كان أو أية ذريعة كانت اعتداء خارجياً ، وإننا سنجابه هذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة. كما انه سيكون بمقدور أمتنا في مرحلة ما بعد الانسحاب الروسي وضع حلول كفيلة لتسوية مشاكلها وبدون الحاجة إلى عون من أي قوى خارجية.

وبالجملة فإننا نكرر مرة أترى أن الحل الوحيد للمشكلة الأفغانية هو الانسحاب غير المشروط للقوات الروسية ، وسقوط نظام نجيب الله ، وضمان حق تقرير المصير للشعب الأفغاني.

ومن جهة أخرى نقلت وكالة أنباء البنيان التابعة للمجاهدين في 7/12/1988م رفض الشيخ سياف وعدم اعتقاده بجدوى التفاوض مع الروس قبل إتمام انسحاب قواتهم بالكامل من أفغانستان.

المحاذير :

إن ما يجب أن يتنبه إليه المجاهدون هو أن روسيا التي فشلت في إملاء رغباتها عن طريق القتال قد تنجح عن طريق التفاوض والمناورات ، وروسيا ماضية في خططها الخبيثة فهي تحرص على شق المجاهدين ، وعلى مخاطبة كل فريق على حدة ، فقد اتصلت بالملك السابق وله أنصاره وعملاؤه ، وكذلك حرصت ش أن تتصل بإيران ومن يلوذ بها من أنصارها وعملائها ، قبل أن تلتقي مع قيادة المجاهدين في باكستان.

وروسيا تحرص كل الحرص على اللعب على التناقضات ، وتكبير الصغير من الخلافات الفرعية ، كما أنها تحرص على أن ينضم إليها في عدائها وخصومتها للمجاهدين وما يمثلون؛ لا أمريكا وممثلوها، وإيران وبطائنها؛ بل أناس وفرقاء من المجاهدين أنفسهم ، فهل يمكنها قادة المجاهدين من ذلك ؛ نسأل الله أن يدفع البلاء.

بعد فراغنا من كتابة التعليق السابق عن آخر أخبار القضية الأفغانية ! وصلنا هذا التقرير الذي نضعه بنصه ولا يختلف في فحواه عما أشرنا إليه.

يحول حكام إيران اهتمامهم من حرب الخليج ، إلى مرحلة حاسمة من صراع القوى في أفغانستان ، ومن المرجح أن يشاركوا في مباحثات الصفقة الأخيرة التي سيتمخض عنها نشوء حكومة ائتلافية يستبعد الشيوعيون منها ، وقد يشكل ائتلاف كهذا أفضل حل للسوفييت -الذين باتوا على استعداد للتخلص من نظام نجيب الله - يحفظ لهم ماء الوجه ، ويرضي باكستان ، حسب معلومات نشرة (Foreign Report)(1) بهذه التحركات السرية الأخيرة.

ولكل من إيران وباكستان -كما للاتحاد السوفييتي - مصلحة قوية في إقامة حكومة مستقرة ، وغير معادية في أفغانستان. وتشترك إيران مع أفغانستان في حدود دولية مفتوحة، وزعماء إيران الدينيون تواقون لرؤية رفاقهم الشيعة

- الذين لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من الشعب الأفغاني السني - يظفرون بنصيب اكبر من صفقة قادمة.
وتتخذ ثمانية أحزاب شيعية أفغانية من إيران قاعدة لها ، وتعد "حركة إسلامي" التي يقودها شيخ محسني - من قندهار - أكبر تلك الأحزاب ، وتريد إيران أن يلعب محسني دوراً رئيسياً في أي تسوية في أفغانستان.
وقد يكون لأربعة أحزاب صغيرة أخرى تحظى بدعم إيران وتنشط في الأماكن النائية دوراً في تسوية مقبلة ، وعلى أية حال فإن تلك الأحزاب تبدي منذ وقت طويل رغبتها في إنشاء قاعدة سياسية بدلاً من مقاتلة الروس ، كما أن إيران تتودد منذ مدة إلى البروفسور برهان الدين رباني أهم زعماء الأفغان الذين يتخذون من بيشاور في باكستان قاعدة لهم ، وكان رباني قد مكث في زيارته الأخيرة لطهران أطول من الفترة المقررة للزيارة ، كما أنه استقبل من قبل الرئيس على خامنئي استقبال رؤساء الدول ، ويتزعم رباني حزب "الجمعية الإسلامية" وهى أكبر الجماعات في إقليم هرات والإقليم الشمالي ، كما أن لديها أكبر عدد من المقاتلين في ساحات القتال ، وسيكون رباني في أي ائتلاف يخلف نجيب الله.
وقالت مصادرنا إن رباني - خلال زيارته لطهران - وعد الشيعة الأفغان باحترام مطالبهم الهادفة إلى الحصول على تمثيل عادل ومشاركة في السلطة في ائتلاف مقبل (2) ، كما علمت مصادرنا أن " فورنتسوف" نائب وزير الخارجية السوفييتي وسفير بلاده لدى أفغانستان يشدد على ائتلاف بين الأحزاب السنية والشيعة ، ويريد الروس ضم الحزب الشيوعي إلى هذا الائتلاف ، ولكنهم يعلمون جيدا برفض المجاهدين لذلك ، ولذلك فإن فورنتسوف ينأى بنفسه عن نجيب الله.
وإن رئيسة وزراء باكستان الجديدة والضعيفة يهمها التوصل إلى حل يشجع عودة ملايين اللاجئين الأفغان إلى بلادهم في أسرع وقت ، الأمر الذي لن يكون إلا بوجود حكومة ائتلافية مستقرة وغير شيوعية في كابل.
ولكن يا ترى من سيكون في ذلك الائتلاف ؟ والجواب : يبدو أن أغلب الجماعات السنية والشيعية ستدعى إلى ذلك باستثناء الحزب الإسلامي الذي يرأسه قلب الدين حكمت يار - والذي يعد من قبل منتقديه متطرفاً وقاسياً ومتعطشاً إلى السلطة (!!) (3) -.
والقادة العسكريون الذين يدعمون المجاهدين يرون في وجوده حجر عثرة يمكن أن يخرب هذه الفرصة السانحة لالتقاء هذه الجماعات مع بعضها.
وقد الـتـقــى المبعوث الروسي فورنتسوف وآخرون بالملك المخلوع ظاهر شاه الذي يعيش في رومـــــا منذ خلعه عام 1973م والذي يمكن أن يلعب دوراً من حيث إمكانية اجتماع هذه الجماعات عليه باعتباره شخصية غير سياسية (4) ، ولكنه من الضعف والجبن بحيث لا يمكنه اقتناص الفرصة.

إن ائتلافاً يستبعد الشيوعية وحكمت يار ، ويضم غالبية الأطراف السنية والشيعية ، قد يكون أفضل فرصة لأفغانستان لتجنب ما هو أسوأ ، المتمثل بتقسيم البلاد - بمزيد من سفك الدماء - إلى إقطاعيات متناحرة.

الهوامش :

1- نشرة خاصة تصدر عن مؤسسة (الإيكونومست).
2- هذا رأى أصحاب النشرة ، وثقتنا بالأخ رباني أنه سيخيب ظن هؤلاء المتخرصين.
3 - هذا ديدن أعداء الإسلام ، فكل من بدت منه صلابة في دينه ، وعدم قبول الدنية يصفونه بأبشع الصفات.
4- هكذا يقدمون الملك السابق على أنه شخصية غير سياسية! والحق أن له أنصاره ، وله من يعمل له ويؤيد أفكاره ، بالإضافة إلى دعم القوى الغربية له.

أخبار الجهاد الأفغاني
حصار المجاهدين يصيب كابل بالشلل

إبراهيم الدهيمان

ذكرت صحيفة التايمز اللـنـدنـية بتاريخ 8 2/12/1988 م إن إمكانية بقاء النظام الشيوعي في كابل في مرحلة ما بعد إكمال الانسحاب السوفييتي مقرون بمقدرته على مقاومة الحصار الاقتصادي الفعال الذي يفرضه المجاهدون على العاصمة كابل.

وتتضح قبضة المجاهدين على العاصمة كابل ذات الطقس الشديد البرودة في أوضح صورها حيث تقـف قـوافـل من الـسـيــارات التي قد تزيد كل قافلة منها على 200 سيارة ، أمام محطات الوقود.

كذلك يتحدث سكان كابل عن نـقـص شـديـد فـي المواد الغذائية الأساسية كالخبر ، وعن ارتفاع ملحوظ في أسعار السكر والشاي والخضروات.

ويرجع السبب الرئيسي و راء تلك الأزمات إلـى الحـصـار الـذي يضربه المجاهدون على الطرق الحيوية.

***

وجاء في العدد التاسع والأربعين من مجلة الجـهـاد الصادرة عن المجاهدين أن المجاهدين مازالوا يتقدمون في فتح المواقع ، وقد تمكنوا أخيرا من فتح (طورخم) الممر الشهير والشريان الحيوي الواصل بين أفغانستان وباكستان، واستولوا على نقطة التفتيش المهمة في هذا الممر وقد هرب إليهم (185) جندي أفغاني بعد هذا الفتح. ويحاول المجاهدون الآن مهاجمة منطقة

(سمرخيل) المهمة ، وأما في المناطق الأخــرى فالوضع جيد بشكل عام بسبب ضعف الحكومة وانسحاب القوات الروسية.

تركستان المنسية

قبل أسابيع معدودة من الآن خـرج مئات من الطلاب التركستانيين المسلمين (الأويغور) (1) في جامعة مدينة أورومجي في مـظـاهــرة فـي شـوارع المدينة وهم يلوحون بلافتات ويطلقون شعارات ضد خصمهم التقليدي : المستوطنين الصينيين وذلك احتجاجاً على إعلان ظهر في أحد أروقة الجامعة يدعو إلى اتخاذ رجال الأويغور عبيداً ونسائهم جواري.

وقالت سيدة تركستانية : "إننا في منظور الصـيـنـيـيـن دائما قوم غير متحضرين ولا نعرف النظافة" وعلق مسؤول صيني على الأحداث فقال : "إن هناك نفراً قليلاً ممن يتآمر بالخفاء ضد وحدة الوطن الأم ، وأضاف. إن أولئك هم خونـة ومن حثالة الناس ولا يمكن التسامح معهم" ، وكانت آخر جولات المصادمات بين الـمـسـلـمـين والصينيين قد حدثت قبل سبع سنوات عندما خرج المسلمون في انتفاضة عارمة في مدينة كـاشـغـر(2) مـسـتـخدمين أسلحة نارية استولوا عليها من إحدى ترسانات السلاح الحكومية ، وقد استدعى جـيش التحرير الشعبي لسحق الانتفاضة مما أدى إلى سقوط المئات من القتلى في صفوف المسلميـن. وتخشى الحـكـومـة الصينية من أن تكون أحداث كهذه امتداداً طبيعياً لما يحدث في الجمهوريــات المسلمة فـي الاتـحـاد السـوفييتي المجاور ، هذا بالإضافة إلى المشاعر الأخوية التي يكنها مسلمو تركستان - الذين يستقـلـون بلغتهم ودينهم وتاريخهم - لمسلمي الاتحاد السوفييتي مما يجعل أمر ولائهم السياسي لبكين مدار شكوك لدى الحكومة الصينية.

وكان الشيوعيون الصينيون قد قـضـوا على آخر محاولة تحررية قام بها مسلمو تركستان في عام 1932 م واستمرت خمسة أعوام اضطر الصينيون حينها للاستعانة بالآلاف من القوات الروسية التي مكنتهم من سحق التـمـرد. ثم تعرضت البلاد إلى محنة أخرى إبان ما يسمى بالثورة الثقافية التي قادها (ماوتسي تونغ) هُدّمت وأغلقت خلالها المئات من المساجد ، في حين قضت المزارع التعاونية على أسباب عيش الرعاة القرويين والتجار والمزارعين.

هذا وقد عمدت الحكومة الصينية إلـى توطـيـن أعداد كبيرة من الصينيين في إقليم تركستان وذلك لموازنة كفة السكان هناك. ففي الوقت الــذي لـم تكن فيه نسبة الصينيين تتجاوز الـ 10 % من مجموع السكان البالغ أربعة ملايين فـي عـام 1949م باتوا اليوم يشكلون ما يربو على 46% من مجموع سكان الإقليم البالغ (14) مليون.

وبعد ما يزيد على نصف قرن من الحكم الشيوعي مــازال الـتــركستانيون يعيشون في عزلة اجتماعية شبه تامة عن الصينيين ، بل إنه من النادر تحدثهم بالـلـغـة الـصـيـنـيـة ، أما الطلاب الجامعيون فيرفضون بشدة سياسة الدولة الهادفة إلى مزج الطلاب المنحدريـن مـن عـرقـيــات مختلفة في الوحدات السكنية الجامعية. ويحبذ مسلمو تركستان هذا النوع من الانـفـصــال العرقي وذلك لأنه الأسلوب الوحيد الذي يتمكنون من خلاله المحافظة على هويتهم الإسلامية ، في حين أن أكثر ما يثير حفيظتهم هو ما يلحظونه من عدم مساواة في توزيع قرص العمل لاسيما في المراكز الرسمية المهمة، حيث يشغل الصينيون معظم الوظائف الإدارية العليا والحساسة.

عن الاندبندنت 20/10/1988

المسلمون في فطاني

إبراهيم الدهيمان

تقع فطاني في شبه جزيرة الملايو جنوب شرق آسيا ، وهى إحدى ولايات مملكة فطاني... وتقع بين خطى عرض 5 - 8 شمال خط الاستواء ، أما الأمطار فإنها مستمرة طوال العام.. وتغطهي الخضرة معظم أراضيها... وأنهارها تجري طوال العام.

وتعتبر منطقة فطاني غنية من الناحية الزراعية والمعدنية... ولكن مع الأسف إن هذا الغنى يذهب إلى مملكة تايلاند... وأهم منتجاتها الأرز حيث تحتل تايلاند بما فيها فطاني المركز السادس في العالم في إنتاج الأرز (1).

وصول الإسلام إلى فطاني :

لا يُعرف بالضبط متى وصل الإســلام فـطـانـي ولكن بدايته كانت عن طريق التجار العرب الذين وصلوها من الهند وسومطرة إضافة إلـى التجار العرب الذين حملوا معهم الإسلام إذ أسسوا أول محطة لهم في كانتون في الصين حـيـن كـان طـريـق سفرهم إلى الصين عن طريق فطاني.

وتروي الأخبار الفطانية وكتب التاريخ أنه في حوالي عام 751 هـ أسـلـم ملك فطاني وتبعه أفراد أسرته ووزرائه ثم الشعب.

أمــا عـدد الـسـكـان فآخر إحصائية في منطقة فطاني تذكر أنهم ثلاثة ملايين نسمة نسبة المسلمين فيها 80% ، أما اللغة الرسمية فهي اللغة الملاوية وتكتب بالأحرف العربية وفيها كثير من الكلمات الـعـربـيـة ، بــل وصل الأمر ببعض الفطانيين إلى اعتقادهم أن الدعاء لا يصح إلا بالعربية بل يستجاب ، أمــا تـايــلانــد فـتـصـر على أن اللغة الرسمية هي اللغة التايلاندية ، ويصر الفطانيون على التمسك بلغتهم وهى جـزء مـن كـيـانـهـم رغم محاربة تايلاند لها.

أقسام فطاني :
تنقسم فطاني إلى 4 مقاطعات هي.
فطاني : أصغر المقاطعات وعاصمتها فطاني وهى أكبر مرفأ بحري وجوي في البلاد.
بنغازا (نارايتواس) : تقع على ساحل بحر الصين الجنوبي ومركزها بنغازا.
ساتول(ســـاتون) : تشمل ولاية ساتول وجزءاً من مقاطعة سونكلا ، وتتبعها عدة جزر ، وهى أكبر المقاطعات وأوسعها.
جالا(يــــــالا) : منطقة داخلية.
الاستعمار لفطاني :
استولى التـايــلانديون على فطاني عام 1201 هـ/1786 م حيث هاجموها عدة مرات بعد فشل عدة مـحــاولات وأخيـراً استولوا عليها وقسموها إلى ولايات لإضعافها " فرق تسد " وبدأت ثورات الفطانيين تترى.
أمثلة لمحاربة تايلاند للإسلام في فطاني :
سنلخص بعض ما تفعله مملكة تايلاند لمحاربة الإسلام في فطاني :
1 - وافق وزير التعليم التايلاندي على لبس الطالبات الحجاب في المدارس إلا أن البوذيين حرضوا الطلاب والطالبات البـوذيـيــن عـلـى القيام بمظاهرات واحتجاجات سحب الوزير على أثرها قراره وقامت مظاهرات فعلاً مما اضـطـرهــم إلى إغلاق الكلية في محافظة (جالا) وكان ذلك ومع الأسف بتحريض من المسئولين البوذيين.
وتبلغ نسبة المسلمين في ولاية (جالا) 85% أكبر نـسـبـة فـي ولايات فطاني الأربع ، أما النظام المتبع الآن فهو منع الزي الإسلامي في المدارس والكـلـيـات ، ومـن تلـبـس اللبـاس الإسلامي مهددة بالطرد من الجامعة.
ومن وسائل طمس الإسلام في فطاني :
1 - تعقيم المسلمات.
2- تصوير ورسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في المدارس.
3- وضع تماثيل بوذا في المدارس.
4- تغيير الأسماء الإسلامية إلى بوذية.
5- إقامة المعابد وسط قرى المسلمين.
6- اغتصاب أراضى المسلمين وتوزيعها على البوذيين.
ومـع كــل هــذا الضغط مازال المسلمون متمسكين بدينهم ولله الحمد ، ولن ينسى التاريخ مأساة شهر ذي الـحـجـة عام 1395هـ الموافق 1975 م عندما قامت السلطات التايلاندية بذبح 5 مسلمين في سابيوري الأمر الذي تسبب في المظاهرات في جامع فطاني ، واستمرت قرابة شهرين استشهد فيها 16 مسلما من المدرسين والطلبة.

2- وفي 26/12/1987م قام تايلانديـون من رجال الأمن وعددهم 30 بهجوم على إحدى قرى فطاني ، وقاموا بجـمــع الـفـلاحين المسلمين وضربوهم وعذبوا أربعة منهم ثم رموهم بالرصاص ودفنوهم في مقبرة واحدة بدون صلاة.

3 - يتعرض المسلمون الآن فـي فـطـانـي لأنواع من المآسي والفتن من إبادة وقتل جماعي، إضافة إلى إبادة الوجود الثقافي والاجتماعي لهم.

4- تقوم السلطات هناك بنشر الفساد وترويج المخدرات بين السكان وكذلك سرقة المواشـي والممتلكات وهتك الأعراض.

انطباعات عامة عن فطاني :

لقد وفقني الله سبحانه وتعالى لزيارة هذا البلد (فطاني) الذي يقع في وسط دولة كافرة لا تأبه بالإسلام ولا تعترف به ، وهى تايلاند ، وقد شاهدت بنفسي ما يعانيه أبناء فطاني المسلـمــون مـن مضايقات كثيرة من قبل الحكومة لا لسبب إلا أنهم قالوا ربنا الله ، ولكن ومما يثلج الصــدر هذه الصحوة العارمة التي بدأت في صفوف الشباب والشابات والإقبال الكبير على هذا الـديــن الـقـويـم من الجميع إلا أن تايلاند تخوفت من ذلك ، وأصبحت تصدر الإحصائيات بين كل فـتــرة وأخـرى وتبين بهذه الإحصائيات زورا أن الغالبية من أبناء فطاني ليسوا مسلمين ، بل وصل الأمر بحكومة تايلاند أن بدأت تهجر أعداداً كبيرة من البوذيين من مناطقهم في تايلاند وتسـكـنـهــم في مناطق المسلمين في فطاني بالقوة لتبقى النسبة في صالحهم.

وتقوم المدرسة الرحمانية في فطاني بجهود كبيرة لخدمة المسلمين في هذه البلاد ، ويشرف عليها أخوة نذروا أنفسهم لخدمة هذا الدين ، وهـم ولله الـحـمـد مـؤهـلـــون من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتشرف على تدريس الشباب والفتيات وكذلك الكبار.

وكانت زيارتنا لهذا البلد في رمضان حيث وجدنا سنة الاعتكاف في معظم مـسـاجدهـم بل منهم التجار الذين تركوا تجارتهم واعتكفوا بالمساجد ، إلا أن الخطر هناك يكمن في نشاط بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام.

وإننا نهيب بالمسلمين ممن يهتمون بشؤون الأقليات الإسلامية أن يتداركوا إخوانهم هناك بتقديم الكتب المبسطة والمترجمة والتي تساعدهم على الفهم الصحيح للإسلام.

الهوامش :

1- فطاني ، محمود شاكر.

الحضارة المعاصرة .. الوجه الآخر

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً

[... والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة ، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة].
ابن تيمية

قصة تتكرر في مدن الـغـرب وربـمـا فـي لـنـدن أكثر من غيرها ننقلها بقلم كاتبتها (آن دي كوري) لتصور لنا بعض ما يعاني الغرب عندما ابتعد كثيراً عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

إن مثل قصة الشابة لورين بانس التي اغـتـيـلـت ببشاعة هذا الأسبوع أصبح - ويا للعار - أمراً مألوفاً، فلم تكد تمضي بضع دقائق على مـغـادرتـهـا للقـطـار حتى سقطت ميتة بفعل فاعل هاجمها بعنف وخنقها.

بماذا عسانا نواجه بناتنا وأبنائنا يا ترى ؟! إن أقل ما يشعر به الرجل عندما يعتدي على امرأة تخصه ، في هذه الأيام هو الشعور بالعجز التام والنقمة والذنب.

إننا في رأيي بحاجة ماسة إلى أمرين اثنين :

أولاً : لابد من تغيير جذري في مواقفنا فليس علينا فقط أن نعترف بـوجــود أماكن وأوقات خطيرة - هذا فضلا عن البشر - بل علينا -أعني سكان لندن - أن نقر بحقيقة (مرة) وهى أننا نعيش في غابة يسودها قانون الغاب ، ويأكل القوي فيها الضعيف.

ولهذا فعلينا مثل سائر مخلوقات الغابة أن نتأقلم مع هذا الواقع ... بالطريقة التي تتكيف بها الحيوانات الضعيفة مع الأخطار المحدقة بها من قبل الحـيـوانــات الأكثر قوة - هذه الحيوانات التي تدفعها شراستها إلى مطاردة فريستها والتربص بها والانقضاض دون نجاح مراراً عديدة ، حتى تفوز في آخر المطاف بالضربة القاضية.

ثانياً : لابد أن نسعى لإحياء الهمم بإيقاظ الشعور الفطري لدى الرجـل بـضــرورة حمـايـة الـمرأة. في وقت مضى كانت التقاليد تجبر الرجل على أن يصطحب المرأة - ذاهبة أو آيبة - بل كان المضيفون عند نهاية الحفل لا يتركون امرأة منفردة تغادر بيتهم دون رفيق ، إذ كانوا يحرصون على إيصالها إلى بيتها إما بصحبتهم أو على الأقل في سيارة أجرة فإن تعذر ذلك فإنهم يصرون على بقائها عندهم تبيت ليلتها بخفارتهم. كانت القاعدة هي أن حماية المرأة واجب ومسؤولية كل رجل.

إنه اعتراف بالحقيقة البيولوجية البسيطة وهى أن النساء أضعف بنية من الرجال ، ثم إن الـذكـور مــن الأولاد إذا تـربـوا على تفهم ضعف أخواتهم وهشاشة معدنهن فسوف يتكون لديهم شعور فطري بالمسؤولية تجاه تأمين كل النساء.

التعليق :

في هذه الغصة وأمثالها حقيقة مــرة بالنسبة لدعاة ما يسمى بتحرر المرأة ، ولكنها حقيقة معروفة ومحسوبة في نظر الإسـلام الذي أكرم المرأة، واعتبرها مخلوقاً مكرماً يحتاج ابتداءً إلى رعاية وصيانة ، فشرع من أجل ذلك التشريعـات الـتـي تحـمى المرأة وتصون كرامتها.

وهاهي كاتبة غير مسلمة تعترف وبملء فيها بـ (ضعف المرأة الجسمي وهشاشة معدنها) وليس في هذا تنقص منها ، كما أن الإسلام في نظرته للمرأة لا ينـتـقـص مـن قـدرهـا، و لا يتنكر لدورها ، وإن المفهوم المعوج للحرية الذي تفهمه النساء العربيات ومن يقلدهن سينزع الحصانة التي كانت تتمتع فيها المرأة في المجتمع ، وإذا نزعت الحصانة فمن الصعب أن تعود في ظل الظروف الاجتماعية الدينية والأخلاقية التي نزعت فيها.

وليس غير الشرع الإسلامي ضمانة للمرأة تجد في ظلها كرامتها ، وتحقق من خلالها ذاتها ((إنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى))

رقم قياسي جديد في جرائم القتل

وصــل عدد الذين سقطوا ضحية عمليات الإجرام في نيويورك مع نهاية عام 1988 م إلى (1849) قـتيلاً، بما في ذلك ثمانية قتلى عشية أعياد الميلاد ، وستة آخرون في اليوم التالي بينما سجل أعلى رقم قياسي في عام 1981 وكان (1841) قتيلاً .

وبهذا يكـون عـــام 1988 م هو الأعنف الذي تمر به مدينة نيويورك من حيث الجرائم ، ويعزو الـمـسـؤولــون فـي المدينة هذا الارتفاع في عمليات القتل إلى تفشي تعاطى المخدرات بأنواعها. أي بمعدل خمسة قتلى في اليوم الواحد

عبادة الشيطان في ألمانيا

لا يـعـلـم رجـال الـشـرطة حتى الآن ما الذي حدث في مصنع المنسوجات المهجور في بلدة "كتويغ" في ألمانيا الغربـيـة قـبـل لـيـال من عيد "هلوين" وأسفـر عن موت المغني "غوردون بروير" ذي الستة عشر ربيعاً ، ويقول الـمـحـامـون إن زمـيـل "غوردون" في المدرسة "أوي" وِتِرْبُهُ قد اعترف بقتله وأدخل مستشفى الأمراض النفسية للعلاج ، حيث أفاد "أوي" أن "غوردون" أخذه للمصنع المهجور ليريه "شيئاً ما" ! رافضاً الإفـصـاح عـنـه للشـرطة ، أما زملاؤه في المدرسة فقد قالوا للمحققين إن المصنع المهجور كان المكان الذي اتخذوه ليـعـبـدوا فيه الشيطان !!

وتـعـتـبر ألمانيا الغربية منذ فترة مركزاً رئيسياً لانتشار المفاهيم الدينية المتنوعة ، فقد أظهر إحصاء رسـمـي لطـلـبـة الـثـانوية في "ميونيج" في بداية هذه السنة أن عشرين في المائة من الطلبة قد اشتركوا في جلسات

روحـيـة أو جـلـسـات لـتـحـضـيـر الأرواح ، إلا أن الديانة الجديدة التي تكتسح البلاد كلها مخيفة فعلاً .. إنها عبادة الشيطان !!
حيث اعترف أربعة في المائة من طلبة الثانوية في الإحصاء الـمـذكـور بـالاشـتـراك ولو لمرة واحـدة عـلـى الأقــل في شعائر القداس الشرير ،
ويقول الراهب البروتستنتي "فريـدريـك ويلهالم هاك " مؤلـف عـدة كـتـب عن هذه الديانات السرية. إن عدد الذين يدينون بشكل نشط بهذه الديانة الشيطانية في ألـمانية الغربية وحدها يبلغ عشرة آلاف شخص ، إلا أنه يصر على أن الشباب يتخذ طقوس هذه الديانة كوسيلة رخيصة للتسلية وتمضية الوقت ، حيث إنها لا تكلف الشباب شيئا بالمقارنة بوسائل التسلية الأخرى ، مثل الذهاب للسينما (سعر التذكرة ستة دولارات) أو حضور حفلة رقص ديسكو (سعر التذكرة عشرون دولارا). ولكن مسؤولين آخرين لا يشاركون الـقـس نظـرته حـيـث يـؤكد أحد المسؤولين عن مؤسسة اجتماعية هدفها متابعة مثل هذه النشاطات : إن هذه النشاطات منتشرة وقوية بشكل أكبر بكثير من مجرد كونها وسيلة لتمضية الوقت لدى الشباب ، بـل إن نـشـاطـهـا يصـل إلـى الأطـفـال فـي المدارس ، حيث طلب المساعدة منهم مدرسون في مدارس ابتدائية بخصوص أطفال "دون سـن الـعـاشرة ..." كـمـا استشيرت الـمؤسسة في حالات تتعلق بأعضاء نشطين ومتحمسين لهذه الديانة "الشيطانية" بقوة ولا تتجاوز أعمارهم ثلاث عشرة سنة.
ويتحدث أخصائيو المصحات النفسية عن قصص مـخـيـفـة عـن تأثـيـر هـذه الـنـشـاطــات والجلسات السرية على نفسيات الشباب الذي يخضع للإيحاءات. ويقول أحدهم أنه عالج ثلاثة مراهقين من هوس يتعلق بالأرواح ، كان أخرهم فتاة عمرها خمس عشرة سنة كانت مـقـتـنـعـة أنـهـا حـامـل من الشـيـطـان وأنه سيكون لهذا الحمل أو الجنين دور خاص في المستقبل... كانت مقتنعة بذلك رغم أنها في الحقيقة لم تكن حاملا على الإطلاق ، ويضيف بأنه قد تمكن من علاجها إلا أنه غـيـر مـتـفـائل لأنها عادت إلى نفس زملائها السابقين ، ويخشى أن يؤدي اشتراكها مرة أخرى فـي مـثـل تـلـك الجلسات السرية إلى عودة المرض النفسي إليها.
وقد أصبحت هذه النشاطات تثير الإزعاج لدرجة أن أولياء الأمور في إحدى القرى حاولوا منذ أسبوعين منع أحد عروض الألعاب السحرية في إحدى المدارس الابتدائية ، وعندما لم يستطيعوا منع العرض منعوا أطفالهم وعددهم أربعين من حضوره في المدرسة خوفا أن يكون حضور أطفالهم لعرض مثل هذا هو الـخـطـوة الأولـى عـلـى الـطـريـق لينضمـوا إلى الديانة " الشيطانية " في المستقبل.

مجلة نيوز ويك - عدد 51
19/12/1988

قديم جديد

أرحام تتعاطف

للشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

طالما نعينا على المسلمين خصوصاً ، وعـلـى الـشـرقـيـين عموماً ، هذا التقاطع الذي شتت شملهم ، وفرق جامعتهم ، وصيرهم لقمة سائغة للـمـسـتـعـمـريـن ؛ وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم ، وأقـمـنـا لهم الأدلة ، وضربنا لهم الأمثال ، وسقنا المثُلات ، وجلونا العبر ، وكانت نذر الشر تـتـوالـى ، فـيـمـارون بها، وصيحات الضحايا منهم تتعالى ، فيصمون عنها والزمن سائر ، والفلك دائر ، وهم في غفلة ساهون.

دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزيل ، وهى جامعة الإسلام ، إلى الروحانية الـخـالـصـة التي لا تشاب بدخيل ، وهي روحانية الشرق ، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة ، والـوطـنـيـات المحدودة ، التي هي منبع شقائهم ، ومبعث بلائهم ، وبينا لهم أنها دسيسة استعماريـة، زيـنـهـا لهم سماسرة الغرب ، وعلماؤه وأدلاؤه ؛ وغايتهم منها التفريق ، ثم التمزيق ، ثم القضم ، ثـم الـهـضـم ، وأن الاستعمار -بهذه الدسيسة وأشباهها- يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم؛ ففطرة الله تلهم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره؛ وديـن الله يـوجـب حقـوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه ؛ وهو بهذا يعمم التناصر ويقيم في الأرض شرعة التعاون ، فما من جار إلا له جار ، والناس كلهم متجاورون، جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية ، فجوار المدينة للمدينة ، فجوار الوطن للوطن؛ فإذا أخـذوا بـهـذه الشرعة وأقاموا حدودها عم التناصر والتعاون ، وسدت المنافذ على المغيرين ، وعلى المفـسـدين في الأرض ولكن الاستعمار - بهذه الدسيسة - بدل شرعة الله بشرعة الشيطان ، فهو يقـول لك : أقصر اهتمامك على دارك ، ولا تلتفت إلى دار جارك ، ويوسوس للجار بمثل ذلك حتى إذا أطـاعـاه خـرب الـداريـن ، واسـتـعـبـد الجارين.

ومازال الاستعمار يروض المسلمين والشرقيين على قبول هذه الدسيسة، ثم على استحسانها ، ثم على الأخذ بها ، حتى تقطعوا في الأرض أمماً ليس منهم الصالحون ... ثـم تقطعت الأمم جماعات ، وكلما آنس منهم مخيلة انتباه غرهم بما يغر به الشيطان: بشجـرة الخلد وملك لا يبلى، وجرهم بما ينجر به الصبيان : ألفاظ فارغة وأسماء وألقاب ، وعـروش من أعواد، في سيل واد؛ حتى ابتلع ممالكهم، واحتجن أموالهم، وتركهم مثلاً في الآخرين ؛ واعتبر ذلك بهذا الاستعمار الجاثم في شمال أفريقيا(1) ، وعد بذاكرتك إلى مبدأ أمره ،

وكيف أكل العنقود حبة حبة ، متمهلاً مطاولاً ، يرقب الخلس ، ويدرع الغلس ؛ وكيف أطعمته غفلتنا الكراع ، أطمعته في الذراع ، حتى استوعب الجسد كله أكلاً ؛ وكيف كان يعتدي على الجزء ، فيقابله الكل بالهزء ؛ اعتبر ذلك ترَأننا ما أخذنا بغتة ، ولا سلبنا هذا الملك الضخم فلتة ؛ وإنما هي آثار تلك الدسيسة فينا ، استبدلنا التناحر بالتناصر ، والتعاوي بالتعاون؛ ثم نزلنا دركة. ، فأصبحنا وإن الأخ ليقتل أخاه في سبيل قاتلهما معاً، ولو اتعظ الأخير منا بالأول لما مد الاستعمار هذا المد ، ولما بلغ فينا إلى هذا الحد.

الهوامش :

1. نشرت هذه الكلمة عام 1951 م.

الصفحة الأخيرة

مزيداً من هذه الخطوات

بدأ بعض المسلمين في بريطانيا يشعرون بالخطر الناجم عن ترك فلذات أكبادهم يتعلمون في المدارس الإنكليزية ، ويتربون على أيدي معلمين ومعلمات أتقنوا فن استهواء الطفل الصغير والتغرير به بأساليب هادئة ماكرة، فالدروس أكثرها قصص وألعاب ورياضة وبرامج تلفاز، والطفل المسكين يردد ما تقوله له المعلمة ، فيتعلم أغاني أعياد الميلاد و (بابا نويل). وفى هذه الأجواء فإن الآباء والأمهات المسلمـيـن - وأكثرهم غير متعلمين - يشعرون بالفرح والبهجة لأن ولدهم أصبح يتكلم الإنـكـلـيـزيــة كأهلها ، وفى العادة فإن الخيرين منهم لا يتنبهون للخطر إلا بعد فوات الأوان ، وبعضـهــم يحـاول ترميم ما أفسده بإرسال ولده إلى المسجد في عطلة نهاية الأسبوع ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وبقيت المشكلة : كيف ننشئ مدارس خاصة لأولاد الـمـسـلـمـيـن ، تزودهم بقدرٍ كافٍ من المعلومات والمعارف الإسلامية التي تحفظهم وتعصمهم من الذوبــان، وهـو تـحـدٍ يـجـابــه المسلمين ، خاصة وأن من ينفق الأموال في وجوه الخير يحب إنفاقها في المساجد ، وهو في غفلة عن المدارس وخطورتها وأهميتها لإنقاذ الأجيال الشابة ، وبدأت تظهر بدايات تدعو إلى التفاؤل، وإن كانت صغيرة الحجم ككل بداية ، فظهرت مدرسة الهجرة في برمنجهام، ومدرسة زكـريا الـثـانـويــة للـبـنـات في مدينة (باتلي) وقد سبق الأخ يوسف إسلام بإنشاء المدرسة الابتدائية الإسلامية في لندن.

ولعل هذا يكون أول الغيث في تشييد المدارس ، وتشمير المسلمين عن ساعد الجد من أجل فهم واقع العصر ، والنظر إلى -المستقبل ، لا إلى الساعة الراهنة فقط.

تمت بحمد الله

مجلة البيان مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية